الفهرس

❖ مقدمة المصنف ❖ في تحقيق معنى القلب ❖ في اعتبار حضور القلب في العبادة	<u>الفصل الأول</u>
❖ أسرار الطهارة والنجاسة ❖ أسرار الطهارة ومعناها ❖ أسرار ستر العورة ❖ أسرار المكان ❖ أسرار الوقت ❖ أسرار الاستقبال إلى القبلة	<u>الفصل الثاني</u>
❖ القيام وأسراره ❖ النية الإحرام وأسراها ❖ دعاء التوجه: معناه وأسراره ❖ القراءة: أسراها ووظائفها ❖ معاني القرآن وما يتعلق بها ❖ قراءة القرآن ❖ الركوع وأسراره ❖ السجود وأسراره ❖ التشهد وأسراه ❖ السلام وأسراه ❖ تنمة الفصل (ختام الصلاة) ❖ وظائف المصلي عقب الصلاة (التعقيب) ❖ وظائف القارئ عند القراءة ❖ سجدة الشكر	<u>الفصل الثالث</u>
❖ الرياء وأقسامه ❖ العجب وأقسامه	<u>الفصل الرابع</u>
❖ في جبر الخلل الواقع في الصلاة ❖ الدواء العملي للخلل	<u>الفصل الخامس</u>
❖ صلاة الجمعة وأسرارها	<u>الفصل السادس</u>

❖ صلاة العيد وأسرارها ووظائفها

❖ صلاة الآيات وأسرارها

❖ صلاة الطواف وأسرارها

❖ صلاة الجنزة وأسرارها

❖ صلاة النذر وأسرارها

البحث الأول

أسرار الصلاة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مطلع من أختار من عبادة الأبرار على حقائق خفايا الأسرار ومودع قلوب أصفياه من لطائف المعارف ما تحار فيه البصائر والأبصار وجاعل القلوب سبباً للنجاة وموضعاً للمناجاة والمبار وذريعة إلى ارتفاع الدرجات وتفاوت مراتب العبادات في قبول طوابع الأتوار، من مطلع المسار وفتح بمفاتيح الغيوب أقفال القلوب عن شفاء وأختار، ورفع حجب السرائر وجلا أبصار البصائر، ففهمت الإشارات ورفعت الأستار فدهشت في مبادئ إشراق نوره الأحداق والأنظار والصلاة على نبيه وحببيه ومعدن سره محمد النبي المختار وعلى آله الأئمة الأبرار وصحبه الأخيار صلاة بدوام الليل والنهار.

وبعد فإن روح السعادة وبهجتها، وروح العبادة ومهجتها، وموجب تلقيها بأيدي القبول والإحسان ومضاعفة الثواب بها في دار الجنان، والتسبب بها إلى لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والانتساب بها إلى عالم الملكوت والملائكة، وتلقي الفيض من عالم الغيب والشهادة وإيجاب القليل منها لعظيم الزيادة وإنما يتم بالإقبال بالقلب في أفعالها وحركاتها وسكناتها، على الله تعالى، والتفكر في أسرارها وتلقب النفس في حالاتها، حسب اختلاف أوضاعها وأطوارها فإنها تارة قصد وإخلاص وانقطاع واختصاص وتارة تكبير لله تعالى وتمجيد وثناء وتحميد وتارة دعاء وابتهاال، وأخرى خضوع وتسافل في حضرة ذي الجلال وتارة خشوع وتململ على التراب بين يدي رب الأرباب وتارة عهد بكلمة التوحيد وتقرير للإسلام وتذكير بالعهد القديم المأخوذ على الأنام وتارة تحية لمقربي حضرته بلفظ السلام، إلى غير ذلك من دقائق الحقائق، التي تظهر للمصلي بفكره الصادق، ومن ثم كانت الصلاة ناهية عن الفحشاء موجبة للقرب والزلقى، كما نطق به القرآن الحكيم، ووردت به الأخبار عن النبي وآله عليهم أفضل الصلاة وأكمل التسليم. وحينئذ فلا بد للمكلف المستيقظ بقلبه عليها، والتفكير في أسرارها والتأدب بآدابها وإلا كانت بمنزل الجسد من غير روح والشجرة من غير ثمرة والعمل من غير غاية.

وقد ذكرنا في هذه الرسالة نبذة من أسرارها وزبده من آدابها وأكثرها قد وردت بين النصوص عن أهل الخصوص عليهم أفضل الصلوات وأكمل التحيات وبمراعاتها يترقى العامل من مدارجها إلى معارج الأسرار والتجليات وهذه الأمور وإن كانت متفرقة في تضاعيف النصوص وكلام الكاملين من العلماء العاملين لكن لا يكاد يجتمع أطرافها إلا عند قليل من الأماجد، ولا يطلع على معانها إلا

واحد بعد واحد فشاركتم في مثوبتها بجمع أطرافها ومبانيها وتهذيب ترتيبها وتقريب معانيها، وصارت مع ذلك معززة للرسالتين الشريفتين اللتين اشتملت إحداهما على واجبات الصلاة وهي الألفية والأخرى على مندوباتها وهي النقلية وهذه على أسرارها القلبية وسميتها بالتنبيهات العلية على وظائف الصلاة القلبية ورتبتها بترتيب القادمة على مقدمة وفصول ثلاثة وخاتمة.

أما المقدمة فتشمل على ثلاثة مطالب : **الأول في تحقيق معنى القلب** الذي ينبغي إحضاره في أوقات العبادات وبسببه تتفاوت مراتب العبادات في الدرجات.

أعلم أن القلب يطلق على معنيين :

أحدهما اللحم الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر وهو لحم مخصوص وفي باطنه وفي ذلك التجويف دم أسود وهو منبع الروح ومعدنه وهذا المعنى من القلب موجود البهائم بل للميت وليس هو المراد في هذا الباب ونظائره.

والمعنى الثاني لطيفة ربانية روحانية لها بهذا القلب الجسماني تعلق وتلك اللطيفة هي المعبر عنها تارة وبالنفس أخرى وبالروح ثالثة وبالإنسان أيضا وهي المدرك العالم وهي تخاطب والمطالب والمعاتب ولها علاقة مع القلب الجسداني وقد تحير عقول أكثر الخلق في إدراك وجه علاقته وإن تعلقه به يضاهي تعلق الأعراض بالأجسام، والوصاف بالموصوفات، أو تعلق المستعمل للآلة بالآلة أو تعلق المتمكن بالمكان وشرح ذلك يخرج عن غرض الرسالة.

وحيث يطلق القلب في الكتاب والسنة فالمراد منه هذا المعنى الذي بفقده ويعلم وقد يكنى عنه بالقلب في الصدر، كما قال الله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ وذلك لما عرفت من العلاقة الواقعة بينها وبين جسم القلب فإنها وإن كانت متعلقة بسائر البدن ومستعملة له ولكنها تتعلق به بواسطة القلب فتعلقها الأول بالقلب وكأنه محلها ومملكتها وعاملها ومطيتها.

ولذلك شبه بعض العلماء القلب بالعرش والصدر بالكرسي وأراد به أنه مملكته والمجري الأولى لتدبيره وتصرفه. فهما بالنسبة إليه كالعرش والكرسي بالنسبة إلى الله تعالى.

ولا يستقيم هذا التشبيه إلا من بعض الوجوه كما لا يخفى.

وهذا المعنى من القلب في الجسد بمنزلة الملك وله فيه الجنود وأعوان وأضداد وأوصاف وله قبول للإشراق والظلمة كالمرآة الصافية التي تقبل انطباع الصور والأشكال المقابلة لها وتقبل الظلمة والفساد والبعد عن الأعداد لذلك بسبب العوارض الخارجة المنافية لجوهرها. وربما وصل إشراقه واستنارته إلى حد يحصل فيه جلية الحق المنافية وتنكشف فيه حقيقة الأمر المطلوب وإلى مثل هذا القلب أشار بقوله (ص): (إذا أراد الله بعبد خيراً جعل له واعظاً من قلبه).

وبقوله (ص): (من كان له من قلبه واعظ كان عليه من الله حافظ).

ومثال الآثار المذمومة الواصلة إليه المانعة له من الاستنارة وقبول الإشراق، مثال دخان مظلم إلى مرآة ولا تزال تتراكم عليه مرة بعد أخرى إلى أن يسود ويظلم بالكلية محجوباً عن الله تعالى وهو الطبع والرين اللذان أشار الله تعالى إليهما في قوله: ﴿لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾

ربط عدم السماع والطبع بالذنوب كما ربط السماع بالتقوى في قوله: واسمعوا ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَ اللَّهُ﴾.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾

فهما تراكمت الذنوب طبع على القلب وعند ذلك يعمى عن إدراك الحق وصلاح الدين ويتهاون بالآخرة ويستعظم أمر الدنيا ويصير مقصور الهم عليه، وإذا قرع سمعه أمر الآخرة وما فيها من الأخطار دخل من أذن وخرج من أخرى ولم يستقر في القلب، ولم يحركه إلى التوبة والتدارك. وهذا هو معنى اسوداد القلب بالذنوب كما نطق به القرآن والسنة كما في قوله تعالى (ص): (قلب المؤمن أجرد فيه سراج يزهر وقلب الكافر منكوس).

وقول الباقر (ع): (إن القلوب ثلاثة: قلب مكنوس لا يعي شيئاً من الخير وهو قلب الكافر، وقلب فيه نكتة سوداء فالخير والشر فيه يختلجان فأيهما كانت منه غلبة غلب عليه. وقلب مفتوح فيه مصابيح تزهر لا يطفأ نوره إلى نوره القيامة).

فأنظر إلى قوله (ع): (لا يطفأ نوره إلى يوم القيامة) فإن هذا حكم نور القلب بالمعنى الثاني لأنه باق وإن خرب البدن بخلاف الأول كما حقق في موضع آخر وروى زرارة عن أبي جعفر (ع) قال: (ما من عبد إلا وفي قلبه نكتة بيضاء فإن أذنب ذنباً خرج في تلك نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك

السواد وإن تمادى في الذنوب زاد ذلك السود حتى يغطي البياض فإذا غطى البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً) وهو قول الله عزوجل: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

فأخبر أن جلاء القلب يحصل بالذكر وإن المتقين هم المتذكرون فالتقوى باب الذكر والذكر باب الكشف والكشف باب الفوز الأكبر.

وأعلم أن القلب مثال حصن والشيطان عدو يريد أن يدخل الحصن ويملكه ويستولى عليه، ولا يقدر على حفظ الحصن من العدو إلا بحراسة بواب الحصن ومداخله ومواقع تهمه فينبغي الاهتمام بمعرفة ذلك وتفصيله مما يطول الكلام فيه ويخرج عن الغرض والأمر الجامع له الإقبال على الله تعالى. وتخيل أنك واقف بين يديه فإن لم تكن تراه فإنه يراك كما ورد في الخبر.

فإذا شعرت بذلك وتحققته وعلمت به انسدت الأبواب دون وساوس اللعين وأقبل القلب على الله تعالى وتفرغ للعبادة.

وقد روي عن النبي (ص): (إن العبد إذا اشتغل بالصلاة جاءه الشيطان وقال له: أذكر كذا أذكر كذا حتى يضل الرجل أن يدري كم صلى).

ومن هاهنا ظهر لك أن مجرد التلفظ بالذكر باللسان ليس هو الزاجر للشيطان بل لا بد معه من عمارة القلب بالتقوى وتطهيره من الصفات المذمومة التي هي أعوان إبليس وجنوده وإلا فالذكر من أقوى مداخل الشيطان وكذلك غيره من العبادات ولذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾.

فخصص ذلك بالمتقي وتأمل أنت في منتهى ذكرك وعبادتك وأفضل أعمالك وهو الصلاة فليس الخبر كالعيان فراقب قلبك إذا كنت في الصلاة كيف تتجاذبه الشياطين في الأسواق والبساتين وحساب المعاملين وجواب المعاندين وغيرهم وكيف تمر بك في أودية الدنيا ومهالكها حتى أنك لا تتذكر ما نسيت من فضول الدنيا إلا في صلاتك ولا تزدهم الشياطين على قلبك إلا إذا صليت فلا جرم لا يطرد عنك الشيطان بمجرد صورة صورته العبادات وإنما بها الواجب عليك وخرجت عن عهدة الأمر الإلهي بل لا بد في دفعه مع ذلك من أصول آخر وإصلاح الباطن من الرذائل التي هي أعوانه وجنوده وإلا لم يزد إلا ضرراً إلا مرضاً وألماً. وبعد ذلك يتصف بالفضائل. وحينئذ يصير قلبه قابلاً للإقبال مشفقاً من التفريط والإهمال. قال الله تعالى: ﴿لَا يَذُكُرُ اللَّهُ تَطْمِئِنُّ الْقُلُوبُ﴾.

فأجعل هذه العلامة بينك وبين استقامة قلبك وإقباله أوقفنا الله وإياك على بساط الاستقامة بمحمد وآله.

ولنقتصر من بحث القلب على هذا القدر مناسبة للاختصار.

في اعتبار حضور القلب في العبادة

المطلب الثاني: في الاستشهاد على ما ينبغي من إحضار القلب في حال العبادة سيما الصلاة التي هي عمود الدين ورأس الأعمال.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾ وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾

ذمهم على الغفلة مع كونهم مصليين لا لأنهم سهوا عنها وتركوها وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ أي يفعلونه في حال وجل قلوبهم والاتصاف بالوجل حالة العمل مستلزم بحضور القلب على أتم وجه.

وقال النبي (ص): (الصلاة ميزان من وفي استوفى).

وقال: (أعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك).

وقال (ص) في فضل إتمامها: (إن الرجلين من أمتي يقومان في الصلاة وركوعهما وسجودهما وأحد وإنما بين صلاتيهما ما بين السماء والأرض).

وقال (ص): (أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حماراً) ز

وقال (ص): (من صلى ركعتين لم يحدث فيهما نفسه بشيء من الدنيا غفر الله له ذنوبه).

وعنه (ص): (من حبس نفسه في صلاة فريضة فأتم ركوعها وسجودها وخشوعها ثم مجد الله عزوجل وعظمه وحمدته حتى يدخل وقت صلاة فريضة أخرى لم يقطع بينهما، كتب الله كأجر الحاج المعتمر وكان من أهل عليين).

وعنه (ص): (إن من الصلاة لما يقبل نصفها وثلثها وربعها وخمسها إلى العشر، وإن منها لما تلف الثوب الخلق فيضرب بها وجه صاحبها وإنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك).

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): (إذا قام العبد المؤمن في صلاته فنظر الله إليه، أو قال: أقبل الله عليه حتى ينصرف وأظلمت الرحمة من فوق رأسه إلى أفق السماء والملائكة تحفه من حوله إلى أفق السماء وكل الله به ملكاً قائماً على رأسه يقول أيها المصلي لو تعلم من ينظر إليك ومن تناجي، ما ألتفت ولا زلت من موضعك أبداً).

وقال الصادق (ع): (لا تجتمع الرغبة والرغبة في قلب إلا وجبت له الجنة. فإذا صليت فأقبل بقلبك على الله عزوجل فإنه ليس من عبد مؤمن يقبل بقلبه على الله عزوجل في صلاته ودعائه إلا أقبل الله عليه بقلوب المؤمنين وأيده مودتهم إياه الجنة).

وعن أبي حمزة الثمالي قال رأيت علي بن الحسين (عليهما السلام) يصلي فسقط رداؤه عن منكبه فلم يسوه حتى فرغ من صلاته قال: فسألته عن ذلك. فقال: ويحك أتدري بين يدي من كنت؟ إن العبد لا يقبل منه صلاة إلا ما أقبل فيها بقلبه، فقلت: جعلت فداك هلكننا، فقال: كلا إن الله يتم ذلك بالنوافل.

وعن الفضيل بن يسار عن أبي جعفر وأبي عبد الله (عليهما السلام) أنهما قالوا: على صلاتك فإتما لك منها ما أقبلت عليه بقلبك ولا تعبت فيها بيدك ولا برأسك ولا بلحيتك ولا تحدث نفسك ولا تتنأب فيها ولا تمط الحديث).

وروى الحلبي عن أبي عبد الله (ع) قال: (إذا كنت في صلاتك فعليك بالخشوع والإقبال على صلاتك فإن الله تعالى يقول:

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾

وعنه، (ع) قال: (كان علي بن الحسين (ع) إذا قام في الصلاة تغير لونه، فإذا سجد لم يرفع رأسه حتى يرفض عرقاً. وكان (ع) إذا قام في الصلاة كأنه ساق شجرة لا يتحرك منه إلا ما حركت الريح منه).

وعن أبي جعفر (ع) قال: (إن أول ما يحاسب به العبد الصلاة فإن قبلت قبل ما سواها إن الصلاة إذا ارتفعت في وقتها رجعت إلى صاحبها وهي بيضاء مشرقة تقول: حفظتني حفظك الله. وإذا

ارتفعت في غير وقتها بغير حدودها رجعت إلى صاحبها وهي سوداء مظلمة تقول: ضيعتني ضيعك الله).

وروى الفيض بن القاسم عن أبي عبدالله (ع) أنه قال (والله إنه ليأتي على الرجل خمسون سنة وما قبل الله منه صلاة واحدة فأى شيء أشد من هذا؟ والله إنكم لتعرفون من جيرانكم وأصحابكم من لو كان يصلي لبعضكم ما قبلها منه لاستخفافه بها. إن الله عزوجل لا يقبل إلا الحسن فكيف يقبل ما يستخف منه).

وعن أبي الحسن الرضا (ع) أن أمير المؤمنين صلوات الله عليه كان يقول: (طوبى لمن أخلص لله العبادة والدعاء ولم يشغل قلبه بما تراه عيناه ولم ينس ذكر الله بما تسمع أذناه ولم يحزن صدره بما أعطي غيره).

وروى سفيان بن عيينة عن أبي عبدالله (ع) في قول الله عزوجل: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: (ليس يعنى أكثركم عملاً ولكن أصوبكم عملاً وإنما الإصابة خشية الله تعالى والنية الصادقة، ثم قال: الإبقاء على العمل حتى يخلص أشد من العمل والعمل الخالص الذي لا تريد أن يحمذك عليه أحد إلا الله عز وجل، والنية أفضل من العمل. ألا وإن النية هي العمل ثم تلا قوله عزوجل: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ يعنى على نيته.

وبهذا الإسناد قال سألته عن قول الله عزوجل ﴿إِنَّمَا مَنْ آتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ قال السليم الذي ربه وليس فيه أحد سواه وقال: وكل قلب فيه شك أو شرك فهو ساقط.

وإنما أراد بالزهد في الدنيا لتفرغ قلوبهم للآخرة.

وعن أبان بن تغلب قال: كنت صليت خلف أبي عبدالله (ع) بالمزدلفة فلما انصرفت التفت إلي فقال: يا أبان، هذه الصلوات الخمس المفروضات من أقام حدودهن وحافظ على مواعيتهن لقي الله يوم القيامة وله عنده عهد يدخله به الجنة، ومن لم يقم حدودهن ولم يحافظ على مواعيتهن لقي الله ولا عهد له، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له.

والأخبار في ذلك كثيرة فلنقتصر على هذا القدر.

وأعلم أنه قد استفيد منها أن قبول الصلاة موقوف على الإقبال بالقلب عليها والالتفات عما سوى الله فيها وأن قبولها يوجب قبول ما سواها من الأعمال وحينئذ فالاهتمام بهذه الصفة أمر مهم

والغفلة عنها خسارة عظيمة وانحطاط قوي وغفلة رديه، حيث يدب نفسه في الطاعة ويقوم بها أثناء الليل وأطراف النهار ثم لا يجد بذلك ثمرة ولا يستفيد به فائدة ﴿لَوْلَا هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿﴾ خصوصاً إذا ضم إلى ذلك ما روى أن الصلاة إذا ردت رد سائر عمله كما أنها قبلت قبل سائر عمله.

فنسأل الله تعالى أن يمن علينا من فضله العميم بدوام الإقبال وقبول الأعمال.

المطلب الثالث: في بيان الدواء النافع في حضور القلب .

أعلم إن المؤمن لا بد أن يكون معظماً لله وخائفاً له وراجياً منه ومستحيماً من تقصيره فلا ينفك عن هذه الأحوال بعد إيمانه وإن كانت قوتها عنده بقدر قوه يقينه. فانفكاه عنها في الصلاة لا سبب له إلا تفرق الفكر وتقسم خاطر وغيبة القلب عن المناجاة والغيبة عن الصلاة. ولا يلهي عن الصلاة إلا الخواطر الواردة الشاغلة. فالدواء في إحضار القلب هو دفع تلك الخواطر ولا يدفع الشيء وإلا بدفع سببه. وسبب توارد الخواطر إما أن يكون أمراً خارجاً أو أمر في ذاته باطناً.

أما الخارج فما يقرع السمع أو يظهر للبصر، فإن ذلك قد يخطف الهم حتى يتبعه ويتصرف فيه ثم ينجر منه الفكر إلى غيره ويتسلسل، ويكون الإبصار سبباً للأفكار ثم تصير بعض تلك الأفكار سبباً للبعض الآخر، ومن قويت رتبته وعلت همته، لم يلهه ما يجري على حواسه. ولكن الضعيف لا بد أن يتفرق فكره. فعلاجه قطع هذه الأسباب بأن يغض بصره أو يصلي في بيت مظلم أو لا يترك بين يديه ما يشغل حسه، أو يقرب من حائط عند صلاته حتى لا تتسع مسافة ما يشغل بصره ويحترز من الصلاة على الشوارع وفي المواضع المنقوشة المصنوعة وعلى الفرش المزينة ولذلك كان المتعبدون يتعبدون في بيت صغير مظلم سعته بقدر ما يمكن للصلاة فيه ليكون ذلك أجمع للهم.

وينبغي أن لا يعدل إلى غمض العينين ما وجد السبيل إلى القيام بوظيفة النظر وهي جعله قائماً إلى موضع السجود وغيره من الأمور المعلومة شرعاً فإن تعذر القيام بها مع فتحهما فالغض أولى لأن الفائق من وظيفة الصلاة وصفتها بتقسيم خاطر أعظم منه مع الإخلال بوظيفة النظر. وليحضر بباله عند نظره إلى موضع سجوده أنه واقف بين يدي ملك عظيم يراه ويطلع على سريره وباطن قلبه وإن كان هو لا يراه، وإن التوجه القلب ووجه الرأس مثال ومضاف بالتبع وإنه يخاف إن ولاه ظهر قلبه أن يطرده عن باب كرمه، ويسلبه عن مقام خدمته، ويبعده عن جناب قدسه ومقدس حضرته، وكيف يليق بالعبد أن يقف بين يدي سيده ويوليه ظهره ويجعل فكره في غير ما يطلبه منه؟

لا ريب في أن هذا العبد مستحق للخذلان مستوجب للحرمان في الشاهد والخسيس والقياس البعيد، فكيف في المقصد الأصلي والملك الحقيقي.

وقد ورد في الحديث (إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم).

فبهذا ونظائره تجتمع المهمة، ويصفو القلب، وينحصر بالنظر إلى الأمور الخارجية.

وأما الأسباب فإنها أشد فإن من تشعبت به الهموم في أودية الدنيا لم ينحصر فكره في فن واحد بل لا يزال يطير من جانب إلى جانب وعض البصر لا يعنيه. فإن ما وقع في القلب كاف للشغل. فهذا طريقه أن يرد النفس قهر إلى فهم ما يقرأه في الصلاة ويشغلها به عن غيره ويعينه على ذلك أن يستعد قبل التحريم بأن يجدد على نفسه ذكر الآخرة، وموقف المناجاة وخطر المقام بين يدي الله تعالى، وهو المطمع، ويفرغ قلبه قبل التحريم بالصلاة عما يهمله فلا يترك لنفسه شغلاً يلتفت إليه خاطره، فهذا طريق تسكين الأفكار. فإن كان لا يجمع مادة الداء من أعماق العروق وهو أن ينظر في الأمور الشاغلة الصارفة له عن إحضار القلب ولا شك أنها تعود إلى ومهمات، وإنها إنما وقطع تلك العلائق وكل ما يشغله عن صلاته فهو ضد دينه، وجند إبليس عدوه، فإمساكه أضر عليه من إخراجة فيتخلص منه بإخراجة وقد روي أن بعضهم صلى في حائط له فيه شجرة فأعجبه ريش طائر في الشجرة يلتمس مخرجاً فاتبعه نظرة ساعة، لم يذكر كم صلى، فجعل حائطه صدقة ندماً ورجاء للعوض عما فاتته.

وهكذا كانوا يفعلون قطعاً لمادة الفكر وكفارة لما جرى من نقصان الصلاة.

وكان بعضهم إذا فاتته صلاة في جماعة أحياناً تلك الليلة، وآخر أخر صلاة المغرب حتى طلع كوكبان، فاعتق رقبتين، وثالث أخر ركعتي الفجر فاعتق رقبة، كل ذلك مجاهدة للنفس، ومناقشة لها في الغفلة عما فيه حظها.

فهذا هو الدواء القامع لمادة العلة، ولا يغنى غيره فإن ما ذكرناه من التلطف بالتسكين والرد إلى فهم الذكر فينبغ في الشهوات الضعيفة والهمم التي لا تشغل إلا حواشي القلب. فأما الشهوة القوية المرهقة فلا ينفع فيها التسكين، بل تجاذبها وتجادبك ثم تغلبك وتنقضي جميع صلاتك في شغل المجاذبة.

ومثاله رجل تحت شجرة أراد أن يصفو له فكره فكانت أصوات العصافير تشوش عليه، فلم يزل طيرها بخشبه في يده ويعود إلى فكره، فتعود العصافير إلى التنفير بالخشبة فقليل له أن أردت الخلاص فأقلع الشجرة.

فكذلك شجرة الشهوة إذا تشبعت وتفرعت أغصانها انجذبت إليها الأفكار انجذب العصافير إلى الأشجار وانجذب الذباب إلى الأقدار والشغل يطول في دفعها، فإن الذباب كلما ذب وآب ولأجله سمي بالذباب.

فكذا الخواطر فهذه الشهوات كثيرة وقلما يخلو العبد عنها ويجمعها أصل واحد وهو حب الدنيا وذلك رأس كل خطيئة وأساس كل نقصان ومنبع كل فساد ومن انطوى باطنه على حب الدنيا حتى مال إلى شيء منها، لا ليتزود منها ويستعين بها على الآخرة فلا يطمع في أن تصفو له لذة المنجاة في الصلاة فإن من فرح بالدنيا فلا يفرح بالله وبمنجاته فإن كانت الدنيا قرّة عينه انصرف لا محالة إليها همه، وهمه الرجل مع قرّة عينه ولكن مع هذا فلا ينبغي أن يترك المجاهدة ورد القلب إلى الصلاة وتقليل الأسباب الشاغلة.

وأما من كانت الدنيا معه وليس هو معها وغنما يصرفها حيث أمره الله تعالى ويستعين بها على طاعة الله ويتزود منها إلى الآخرة، وهمته مجتمعة في ما يبقى ويجعلها من أسباب الكمال ومقدماته فلا بأس عليه. فقد قال (ص): (نعم العون على تقوى الله الغنى).

إلا أن ذلك محل الغرور وموضع تلبيس إبليس عليه لعنة الله فليحذر المستيقظ عند ذلك ولا يزال يراجع عقله ويمتحن قلبه حذراً من أن يدخل عليه الخطر والكدر، وهو لا يشعر ولا برهان على ذلك أقوى من الوجدان.

فهذا هو الدواء المر، ولمراته استبشعته أكثر الطباع، وبقيت ركعتين مزمنة وصار الداء عضالاً، حتى إن الأكابر اجتهدوا أن يصلوا ركعتين لا يحدثون فيهما أنفسهم بأمر الدنيا فعجزوا عن ذلك.

فإذا لا مطمع فيها لأمثالنا وليته سلم لنا من الصلاة شطرها أو ثلثها من الوسواس فنكون ممن خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وعلى الجملة فهمة الدنيا وهمة الآخرة في القلب مثل الماء الذي يصب في قدح مملوء بالخل فيقدر ما يدخل من الماء يخرج من الخل ولا يجتمعان.

فتدبر هذه الجملة وفكك الله وإيانا إلى الرشاد وأوقفنا على مناهج السداد.

فهذا ما يتعلق به الغرض من المقدمة.

أسرار الطهارة والنجاسة

الفصل الأول

في المقدمات: وهي واجبة ومندوبة

فالواجبة: الطهارة وإزالة النجاسة وستر العورة والمكان الذي يصلي فيه الوقت والقبلة.

والمندوبة: كثيرة كالمسجد والأذان والإقامة والتوجه بست تكبيرات.

ولكل واحدة من هذه المقدمات وظائف قلبية وأسرار خفية يطلع عليها بصفاء العقل وما نذكره من الوظائف كالمدرج إلى زيادة والمراقبة إلى غير دقائق العبادة.

❖ في أسرار الطهارة ومعناها.

أما الطهارة: فليستحضر في قلبه أن تكليفه فيها بغسل الأطراف الظاهرة وتنظيفها لإطلاع الناس عليها، وتكون تلك الأعضاء مباشرة للأمور الدنيوية منهيمة في الكدورات الدنية فلأن يظهر مع ذلك قلبه الذي هو موضع نظر الحق، فإنه (لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم). لأنه الرئيس الأعظم لهذه الجوارح والمستخدم لها في تلك الأمور والمعبرة عن جنابة تعالى وتقدس، أولى وأحرى بل هذا تنبيه واضح على ذلك وبين شاف على ما هنالك، وليعلم من تطهير تلك الأعضاء عند الاشتغال بعبادة الله تعالى، والإقبال عليه، والالتفات عن الدنيا بالقلب والحواس، لتلقي السعادة في الآخرة. إن الدنيا والآخرة ضربتان كلما قربت من إحداها بعدت عن الأخرى فذلك أمر بالتطهير من الدنيا عند الاشتغال والإقبال على الآخرة.

فأمر في الوضوء بغسل الوجه لأن التوجه والإقبال بوجه القلب على الله تعالى به وفيه أكثر الحواس الظاهرة التي هي أعظم الأسباب الباعثة على مطالب الدنيا. فأمر بغسله ليتوجه به وهو خال من تلك الأدناس، ويتوقى بذلك إلى تطهير ما هو الركن الأعظم في القياس.

ثم أمر بغسل اليدين، لمباشرتهما أكثر أحوال الدنيا الدنية والشهوات الطبيعية ثم يمسخ لأن فيه القوة والمفكرة التي يحصل بواسطتها القصد إلى تناول المرادات الطبيعية وتتبع الحواس حينئذ إلى الإقبال على الأمور الدنيوية، دون الإقبال على الآخرة السنية، ثم يمسخ الرجلين لأن بهما

يتوصل إلى مطالبه ويتوسل إلى تحصيل مآربه على ما نحو ذكر في باقي الأعضاء وحينئذ يسوغ له الدخول في العبادة والإقبال عليها فائزاً بالسعادة.

وأمر في الغسل بغسل جميع البشرة لأن أدنى حالات الإنسان وأشدّها تعلقاً وتمكناً بالملكات الشهوية، حالة الجماع، موجبات الغسل ولجميع بدنه في تلك الحالة، ولهذا قال (ص): (إن تحت كل شعرة جنابة).

فحيث كان جميع بدنه بعيداً من المرتبة العلية، منغمساً في اللذات النية كان غسله أجمع من أهم المطالب الشرعية ليتأهل لمقابلة الجهة الشريفة والدخول في العبادة المنيفة، ويبعد عن القوى الحيوانية واللذات الدنيوية.

ولما كان للقلب من ذلك الحظ الأوفر والنصيب الأكمل، كان الاشتغال بتطهيره من الرذائل، والتوجيهات المانعة من درك الفضائل أولى من تطهير تلك الأعضاء الظاهرة عند اللبيب العاقل.

وأمر في التيمم بمسح تلك الأعضاء الرئيسة وهضماً لها بتلقيها بأثر التربة الخسيسة وهكذا يخطر أن القلب إذا لم يمكن تطهيره من الأخلاق الرذيلة وتحليته بالأوصاف فليقمه في مقام الهضم والإزراء وليسفه بسياط الذل والإغضاء عسى أن يطلع عليه مولاه الرحيم وسيده الكريم وهو منكسر متواضع فيهبه نفحة من نفحات نوره اللامع فإنه عند القلب المنكسرة، كما ورد الأثر فترق من هذه الإشارات ونحوها إلى ما يوجب لك الإقبال وتلافي سالف الإهمال.

ومن الأسرار الواردة في الأثر من نظائر ذلك قول الصادق (ع): (إذا أردت الطهارة، فتقدم إلى الماء تقدمك إلى رحمة الله تعالى فإن الله قد جعل الماء مفتاح فريته ومناجاته، ودليلاً إلى بساط خدمته وكما أن رحمته تطهر ذنوب العباد، كذلك النجاسات الظاهرة يطهرها الماء لا غير).

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾. ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ وقال عزوجل: ﴿جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾.

فكما أحيا كل شيء من نعيم الدنيا كذلك بفضله ورحمته جعل حياة القلوب بالطاعات وتفكر في صفاء الماء ورقته، وظهره وبركته، ولطيف امتزاجه بكل شيء وفي كل شيء واستعمله في تطهير الأعضاء التي أمر الله بتطهيرها وأت بآدابها في فرائضه وسننه فإن تحت كل واحدة منها فوائد كثيرة. فإذا استعملتها بالحرمة انفجرت لك عين فوائد عن قريب.

ثم عاشر خلق الله تعالى كامتزاج الماء بالأشياء يؤدي إلى كل شيء حقه، و لا يتغير عن معناه لقول رسول الله (ص):
(مثل المؤمن الخالص كمثل الماء).

ولتكن صفوتك مع الله تعالى في جميع طاعاتك كصفوة الماء حين أنزله من السماء وسماه ظهوراً وطهر قلبك بالتقوى واليقين عند طهارة جوارحك بالماء).

وفي علل ابن شاذان عن الرضا (ع) إنما أمر بالوضوء ليكون العبد طاهراً إذا قام بين يدي الجبار وعند مناجاته إياه مطيعاً له في ما أمره، نقياً من الأدناس والنجاسة مع ما فيه من ذهاب الكسل وطرد النعاس وتذكية الفؤاد بين يدي الجبار.

وإنما وجب على الوجه واليدين، والرأس والرجلين لأن العبد إذا قام بين يدي الجبار ينكشف عن جوارحه ويظهر ما وجب فيه الوضوء وذلك إنه بوجهه يسجد ويخضع ويبيده يسأل ويرغب ويرهب ويتبتل، وبرأسه يستقبل في ركوعه وسجوده وبرجليه يقوم ويقعد وأمر بالغسل من الجنابة دون الخلاء لأن الجنابة من نفس الإنسان وهي شيء يخرج من جميع جسده، والخلاء ليس هو من نفس الإنسان إنما هو غذاء يدخل من باب ويخرج من باب).

وأما إزالة النجاسة فالكلام فيها نحو الكلام في الطهارة في التذكير بتطهير القلب من نجاسة الأخلاق ومساويها فإنك إذا أمرت بتطهير ظاهر الجلد وهو القشر وبتطهير الثياب وهي أبعد من ذاتك فلا تغفل عن تطهير لبك الذي هو ذاتك، وقلبك، فاجتهد له تطهيراً بالتوبة والندم على ما فرط وتصميم العزم على ترك العود في المستقبل وطهر بها باطنك فإنه موقع نظر المعبود وتذكر بتخليك لقضاء الحاجة نقصك وحاجتك وما تشمل عليه من الأقدار وما في باطنك وأنت تزين ظاهرك للناس، والله تعالى مطلع على خبث باطنك وخسة حالك واشتغل بإخراج نجاسات الباطن، والأخلاق الداخلة في الأعماق المفسدة لك على الإطلاق لتستريح نفسك عند إخراجها، ويسكن قلبك من دنسها ويخف لبك من ثقلها وتصلح للوقوف على بساط الخدمة والتأهل للمناجاة ولا تستر ما ظهر منك فلا بد أن يظهر عليك ما تظن أنك مخفيه لأن الطبيعة تظهر ما يكن فيها فتفضح حينئذ بما سترته عن الناس كما يفعل الله بكل مدلس.

قال الصادق (ع): (سمي المستراح مستراحاً لاستراحة النفوس من أنقال النجاسات واستفراغ الكثافات والقدر فيها، والمؤمن عندها أن الخالص من حطام الدنيا كذلك تصير عاقبته، فيستريح بالعدول عنها وتركها ويفرغ نفسه وقلبه عن شغلها، ويستنكف عن جمعها وأخذها واستنكافه عن

النجاسة والغائط والقذر ويتفكر في نفسه المكرومة في حال كيف تصير ذليلة في حال ويعلم أن التمسك بالفتنة والتقوى يورث له راحة الدارين، وأن الراحة في هوان الدنيا والفرغ من التمتع باب الكبر بعد معرفته إياها، بأنها مع كونها في حال كيف صارت ذليلة في حال. ويفر من الذنوب، ويفتح باب التواضع والندم والحياء ويجتهد في أداء أوامره واجتناب نواهيها طلباً لحسن المآب وطيب الزلفى، ويسجن في سجن الخوف والصبر والكف عن الشهوات إلى أن يتصل بأمان الله في دار القرار ويدوق طعم رضاه، فإن المعقول ذلك وما عداه لا شيء.

❖ في أسرار ستر العورة

وأما ستر العورة فاعلم أن معناه تغطية مقابح بدنك عن أبصار الخلق فإن ظاهر بدنك موقع نظر الخلق فما بالك في عورات باطنك ومقابح سرّك التي لا يطلع عليها إلا ربك.

فاحضر تلك المقابح ببالك، وطالب نفسك بسترها وتحقق أنه لا يستر عن عين الله ساتر وإنما يسترها ويكفرها الندم والحياء والخوف فتستفيد بإحضارها في قلبك انبعاث جنود الخوف والحياء من مكانها فتذل بها نفسك ويستكين تحت الخجلة قلبك وتقوم بين يدي الله تعالى قيام العبد المجرم المسيء الآبق الذي ندم فرجع إلى مولاه ناكساً رأسه من الحياء والخوف.

قال الصادق (ع): (أزين اللباس للمؤمنين لباس التقوى وأنعمه الإيمان فإن الله عزوجل قال: ﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾)

وأما لباس الظاهر فنعمة من الله يتسر بها عورات بني آدم وهي كرامة أكرم الله بها عباده من ذرية آدم (ع) ما لم يكرم غيرهم وهي للمؤمنين آلة لأداء ما افترض الله عليهم.

وخير لباسك ما لا يشغلك عن الله عزوجل بل يقربك من شكره وذكره وطاعته ولا يحملك فيها على العجب والرياء والتزين والمفاخرة والخيلاء فإنها من آفات الدين ومورثة القسوة في القلب.

وإذا لبست ثوبك فاذكر ستر الله تعالى عليك ذنوبك برحمته والبس باطنك بالصدق، كما لبست ظاهرك بثوبك. وليكن باطنك في ستر الرهبة وظاهرك في ستر الطاعة واعتبر بفضل الله عزوجل حيث خلق أسباب اللباس لستر العورات الظاهرة، وفتح أبواب التوبة والإنابة ليستر بها عورات الباطن من الذنوب، وأخلاق السوء، ولا تفتضح أحداً حيث ستر الله عليك أعظم منه، واشتغل بعيب نفسك بعمل غيرك ويتجر برأس مالك غيرك وتهلك نفسك، فإن نسيان الذنوب من أعظم عقوبة الله تعالى في العاجل وأوفر أسباب العقوبة في الآجل. وما دام العبد مشتغلاً بطاعة الله ومعرفة عيوب

نفسه وترك ما يشين في دين الله فهو بمعزل عن الآفات غائص في بحر الله عزوجل يفوز بجواهر الفوائد من الحكمة والبيان، وما دام ناسياً لذنوبه، جاهلاً بعيوبه راجعاً إلى حوله وقوته، فلا يفلح إذا أبداً.

❖ في أسرار المكان

وأما المكان فاستحضر فيه انك كائن بين يدي ملك الملوك تريد مناجاته والتضرع إليه، والتماس رضاه، ونظره إليك بعين الرحمة فانظر مكاناً يصلح لذلك كالمساجد الشريفة والمشاهد المطهرة مع الإيمان، فإنه تعالى جعل تلك المواضع محلاً لإجابته ومضمنة لقبوله ورحمته، ومعدناً لمرضاته ومغفرته على مثال حضرة الملوك الذين يجعلونها وسيلة لذلك.

فادخلها ملازماً للسكينة والوقار، مراقباً للخشوع والانتكاس سائلاً أن يجعلك من خاص عباده وأن يلحقك بالماضين منهم وراقب الله كأنك على الصراط جائز، وكن متردداً بين الخوف والرجاء، وبين القبول والطرده فيخشع حينئذ قلبك، ويخضع لربك وتتأهل لأن تفيض عليك الرحمة، وتناك يد العاطفة، وترعك عين العناية.

قال الصادق (ع): (إذا بلغت المسجد فعلم أنك قصدت باب ملك عظيم لا يطأ بساطه إلا المطهرون، ولا يؤذن لمجالسته إلا لصديقون وهب القدوم إلى بساط خدمة الملك، هيبة الملك فإنك على خطر عظيم إن غفلت.

واعلم أنه قادر على ما يشاء من العدل والفضل معك وبك، فإن عطف عليك بفضله ورحمته، قبل منك يسير الطاعة وأجزل لك عليها ثواباً كثيراً وإن طالبك باستحقاقه الصدق والإخلاص عدلاً بك حجبك ورد طاعتك، وإن كثرت وهو فعال لما يريد.

واعترف بعجزك وتقصيرك، وانكسارك وفقرك بين يديه فإنك قد توجهت للعبادة له والمؤانسة به وأخل قلبك عن كل شاغل يحجبك عن ربك فإنه لا يقبل إلا الأظهر والأخلص فإن ذقت من حلوة مناجاته ولذيد مخاطباته وشربت بكأس رحمته وكراماته، من حسن إقباله وإجابته فقد صلحت لخدمته فادخل فاك الإذن والأمان وإلا فقف وقوف مضطر قد انقطع عنه الحيل، وقصر عنه الأمل، وقضى عليه الأجل.

فإذا علم الله من قلبك صدق الالتجاء إليه نظر إليك بعين الرأفة والرحمة واللطف والعطف، ووفقك لما يحب ويرضى، فإنه كريم مجيب يحب الكرامة لعباده المضطرين إليه، قال الله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾

❖ في أسرار الوقت

وأما الوقت: فاستحضر عند دخوله أنه ميقات جعله الله تعالى لك لنقوم فيه بخدمته وتتأهل للمثول في حضرته، والفوز بطاعته وليظهر على قلبك السرور، وعلى وجهك البهجة عند دخوله، لكونه سبباً لقربك، ووسيلة إلى فوزك، فاستعد له بالطهارة والنظافة، ولبس الثياب الصالحة للمناجاة كما تتأهب عند القدوم على ملك من كلوم الدنيا وتلقاه بالوقار والسكينة، والخوف والرجاء، فإن الرحمة عميمة والفضل قديم والآخذ والاستدراج متحقق والطرده عند التقصير متوجه، فكن بين ذلك قواماً.

وإلزام الخضوع والخشوع والذل والانتكسار فإنه تعالى عند الموصوف بذلك ومثل في نفسك لو أن ملكاً من ملوك الأرض وعذك بأن يكتبك في وقت معين من خواصه القانمين بين يديه ببعض خدمته ويخاطبك وتخاطبه، على طريق الاتساض والأنس في مخاطباتك وتطلب منه ما يحتاج إليه من مهماتك ويجعلك عنده من مقربي العباد، ويخلع عليك خلعة سنوية بين الأشهاد، ويجعل ذلك إلى مدة طويلة، وغاية بعيدة، مع أنه لا يؤثر ذلك في حظك عند الله تعالى، بل يزيده...

أما كنت منتظراً ذلك الوقت قبل إبانته وتهتم له قيل أوانه وتفرح بقربه فضلاً عن دخوله وتزيد بهجتك وسرورك عند وصوله؟

فلا تجعل عناية الله جل جلاله بك، وإعدادك لمخاطبتك له ومخاطبته لك، وكتبه إياك في ديوان المقربين بالصلاة التي هي أفضل الأعمال وسجودها أوجب القرب إلى حضرته، والفوز بمحبته، كما ورد في كتابه الحكيم: ﴿ وَأَسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ﴾، ووعده رسول الله الكريم وخلعته الدائمة في الدار الصافية دون تقرب ملك من ملوك الدنيا مع عجزه عن نفعك، بدون توفيق الله تعالى له، وعدم الوثوق الحقيقي بوفائه ودوامه مدة يسيرة على تقدير وقوعه.

ومن هنا كان النبي (ص) ينتظر وقت الصلاة ويشتد شوقه ويتربح دخوله ويقول لبلال مؤذنه : (أرحنا يا بلال) أشار بذلك إلى أشار بذلك إلى انه في تعب شديد من عدم اشتغاله بهذه التكليفات وقيامه بوظائف الصلاة وإن كان سره لا يخلو من ضروب من المناجاة إلا أن قرأه عينه في الصلاة كما قال عليه أفضل الصلاة والتحيات.

ثم استشعر بعد هذه البهجة خشية الله تعالى في الوقوف بين يديه وأنت ملطخ بكدوراتك النفسانية وعلائقك الدنيوية وعوائقك البدنية، فإن استشعار الخوف شعار الكاملين كما أن الغفلة عن ذلك علامة المطردين، كما قد عرفته في تضاعيف الأسرار وجملة الآثار.

واستحضر عظمة الله وجلاله، ونقصان قدرك وكمالته.

وقد روى عن بعض أزواج النبي أنها قالت: (كان النبي يحدثنا ونحدثه فإذا حضر وقت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه شغلاً بالله عن كل شيء). وكان علي (ع) إذا حضر وقت الصلاة يتململ ويتزلزل فيقال له: (مالك يا أمير المؤمنين؟ فيقول: (جاء وقت أمانة عرضها الله على السموات والأرض فأبين حملها وأشفقن منها).

وكان علي بن الحسين (ع) إذا حضر للوضوء أصفر لونه، قال له: ما هذا الذي يعتادك عند الوضوء؟ فيقول: (ما تدري بين يدي من أقوم).

وكل ذلك إشارة إلى استحضار عظمة الله تعالى، والاتفات إليه حال العبادة والانتقطاع عن غيره.

وإذا سمعت نداء المؤمن فأحضر في قلبك هو النداء يوم القيامة وتشمر بباطنك وظاهره للمسارعة والإجابة فإن المسارعين إلى هذا النداء، هم الذين ينادون باللطف يوم العرض الأكبر فاعرض قلبك على هذا النداء، بالبشرى والفوز يوم القضاء واعتبر بفصول الأذان وكلماته افتتحت بالله واختتمت بالله، واعتبر بذلك أن الله عزوجل (هو الأول والآخر، والظاهر والباطن). ووطن قلبك بتعظيمه وتكبيره عند سماع التكبير واستحضر الدنيا وما فيها لئلا تكون كاذباً في تكبيرك، وانف عن خاطرك كل معبود سواه بسماع التهليل، وأحضر النبي وتأدب بين يديه، واشهد له بالرسالة مخلصاً، وصل عليه وعلى آله، وحرك نفسك بقلبك وقالبك عند الدعاء إلى الصلاة وما يوجب الفلاح، وما هو خير الأعمال وأفضلها وجدد عهدك بعد ذلك بتكبير الله وتعظيمه واختتمه بذكره كما افتتحت به، واجعل مبدأك منه، وعودك إليه، وقوامك به، واعتمادك على حوله وقوته، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

❖ في أسرار الاستقبال إلى القبلة

وأما الاستقبال فهو صرف لظاهر وجهك عن ساير الجهات إلى بيت الله.

أفترى أن صرف القلب عن سائر الأمور إلى أمر الله، ليس مطلوباً منك؟ ... هيهات هيهات بل لا مطلوب سواه وإنما هذه الظواهر مركبات للبوطن، ووسائل إليها، ومعارض يترقى منها إليها، وضبط للجوارح وتسكين لها بالثبات على جهة واحدة، حتى لا ينبغي على القلب فإنها إذا بغت وظلمت في حركاتها والتفاتاتها إلى جهاتها، استتبت القلب، وانقلبت به عن وجهه الله فليكن وجه قلبك مع وجه بدنك، ومن هنا جاء قول الرسول (ص) (أما يخاف الذي يحول وجهه في الصلاة أن يحول الله وجهه وجه حمار؟ فإن ذلك نهى عن الالتفات عن الله، وملاحظة عظمتة في حال الصلاة فإن المتلفت يميناً وشمالاً ملتفت عن الله تعالى، وغافل عن مطالعة أنوار كبريائه، ومن كان كذلك فيوشك أن تدوم تلك الغفلة عليه، فيتحول وجه قلبه كوجه الحمار في قلة عقله للأمور العلوية وعدم إكرامه بشيء من العلوم والقرب إلى الله تعالى).

واعلم أنه كما لا يتوجه الوجه إلى جهة البيت إلا بالصرف عن غيرها فلا ينصرف القلب إلى الله تعالى إلا بالتفرغ عما سوى الله تعالى وقد قال النبي (ص) (إذا قام العبد إلى صلاته فكان هواه وقلبه إلى الله تعالى، انصرف كيوم ولدته أمه).

وقال الصادق (ع): (إذا استقبلت القبلة فأيس من الدنيا وما فيها والخلق وما هم فيه، واستفرغ قلبك عن كل شاغل يشغلك عن الله تعالى، وعاین بسرك عظمة الله واذكر وقوفك بين يديه ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقَّ وَوَضَّلَ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَقْتِرُونَ﴾ وقف على قدم الخوف والرجاء).

فإذا توجهت بالتكبيرات، فاستحضر عظمة الله سبحانه وصغير نفسك وخسيء عبادتك في جنب عظمتة وانحطاط همتك عن القيام بوظائف خدمته، واستتمام حقائق عبادته.

وتفكر عند قولك: اللهم أنت الملك الحق المبين، لا إله إلا أنت، سبحانه وبحمدك في عظيم، وعموم قدرته، واستيلائه على جميع العوالم.

ثم أرجع على نفسك بالذل والاكسار والاعتراف بالذنوب والاستغفار عند قولك: عملت سوءاً وظلمت نفسي فاغفر لي إنه يغفر الذنوب إلا أنت.

وأحصر دعوته لك بالقيام بهذه الخدمة، ومثل نفسك بين يديه وأنه قريب منك يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ويسمع نداءه وأن بيده خير الدنيا والآخرة، لا بيد غيره، عند قولك: لبيك وسعديك والخير في يدك.

ونزّهه عن الأعمال السيئة وأفعال الشر وأبدله بها محض الهداية والإرشاد عند قولك: والشر ليس إليك.

وأرغب لهديته عند قولك والمهدي من هديت.
واعترف له بالعبودية وأن قوام وجودك وبدوه ومعاده منه بقولك عبدك وابن عبدك، منك وبك ولك وإليك.

أي: منك وجوده، وبك قوامه ولك ملكه وإليك معاده ﴿وَهُوَ الَّذِي بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

فأحضر في ذهنك هذه الحقائق وترق منها إلى ما يفتح عليك من الأسرار والدقائق وتلقي الفيض من العالم الأعلى، فإن أبوابه لا تنسد عن أحد من القوايل، ولا يخيب لديه أمل أمل.

اللهم أهلنا لقبول طواع أسرارك، وكلمنا بالوصول إلى لوامع أنوارك، واجعلنا من الواقفين على كرسى إرادتك العاكفين على بساط كرامتك، وتممنا من هذا النقصان، وأهدنا إلى طريق الرضوان، وجد علينا بلطيف الإحسان، وأعذنا من صفقة الخسران، ﴿آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

أسرار أركان الصلاة وآدابها

الفصل الثاني

في المقارنات

وهي ثمانية:

الأولى: القيام ووظيفة القلبية.

تذكر أنك قائم بين يدي الله تعالى وهو مطلع على سريرتك عالم بما تخفي وما تعلن وهو أقرب إليك من حبل الوريد فاعبده كأنك تراه، فإن لم تكن فإنه يراك.

وانصب قلبك بين يديه كما نصبت شخصك وطأطئ رأسك الذي هو أرفع أعضائك، مطرقاً مستكيناً.

وألزم قلبك التواضع والخشوع والتذلل، والتبري عن التروؤس والتكبر كلما وضعت رأسك.

وقم بين يديه قيامك بين يدي بعض ملوك الزمان، وإن كنت تعجز عن معرفة كنه جلاله، فإنك تجد وجداناً ضرورياً أنك تنقهر عند مكالمة الملك ومحاورته، وتلزم معه السكون والخضوع.

وربما يتبع ذلك رعدة البدن وتلعثم اللسان ومنتشاً ذلك كله الخوف الحادث عند تصور عظمته فكيف يتصور جبار الجبابرة، وملك الدنيا والآخرة؟ فعند ذلك يحصل لك الخوف الذي هو المقصد الذاتي من المعارف، وكذلك يحصل الرجاء عند تصور عظمته، واستشعار أن الكل منه، فإن ذلك باعث على رجائه، وقد تأكد ذلك بالآيات الواردة في باب الخوف والرجاء فكذاك يستلزم ذا الحياء منه لأن المتصور عظمة الأمير لا يزال مستشعراً تقصيراً ومتوهماً ذنباً وذلك الاستشعار والتوهم يوجب الحياء من الله تعالى، وهذه أمور مطلوبة من العابد بل قدر في دوام قيامك في صلاتك أنك ملحوظ ومرقوب بعين كائنة من رجل صالح من أهلك وممن ترغب أن يعرفك بالصلاح، فغنه تهدياً عند ذلك أطرافك، وتخضع جوارحك وتسكن جميع أجزائك خفية أن ينسبك ذلك العاجز المسكين إلى قلة الخشوع.

وإذا أحسست من نفسك بالتماسك والثبات عند ملاحظة عبد مسكين فعاتب نفسك وقل لها: يا نفس تدعين معرفة الله تعالى أفما نستحين من اجترائك عليه، مع توقيرك عبداً من عباده.

أوتخشين الناس ولا تخشينه وهو أحق أن يخشى؟

ألا تستحين من خالقك ومولاك إذا قدرت اطلاع عبد ذليل من عباده عليك، وليس بيده خيرك ولا نفعك ولا ضرك وخشعت لأجله جوارحك وحسنت صلاتك.

ثم إنك تعلمين أنه مطلع عليك فلا تخشعين لعظمته، أو أهون عندك من عبد من عباده؟ فما أشد طغيانك وجهلك، وما أعظم عداوتك لنفسك!.

ولذلك لما قيل للنبي كيف الحياء من الله تعالى؟ فقال النبي تستحي منه كما تستحي من رجل صالح من قومك.

❖ في أسرار القيام

وأما دوام القيام فهو تنبيه على إدامة القلب مع الله تعالى على نعت واحد من الحضور، قال النبي: (إن الله مقبل على العبد ما لم يلتفت).

وكما يجب حراسة العين والرأس من الالتفات إلى غير الصلاة فكذلك يجب حراسة السر عن الالتفات إلى غير الصلاة، فإن التفت على غيرها فنكره باطلاع الله تعالى عليك، وقبح التهاون بالمناجى مع غفلة ظاهراً ليعود إلى التيقظ. وألزم الخشوع الباطن فإنه ملزوم الخشوع ظاهراً ومهما خشع الباطن وخشع الظاهر.

قال النبي (ص) وقد رأى مصلياً يعبت بلحيته: (أما هذا لو خشع قلبه لخشعت جوارحه) فإن الرعية بحكم الراعي. ولهذا ورد في الدعاء: اللهم أصلح الراعي والرعية. وهو القلب والجوارح.

وكل ذلك يقضيه الطبع بين يدي من يعظم من أبناء الدنيا فكيف لا يتقاضاه بين يدي ملك الملوك وجبار الجبابرة؟ ومن يطمئن بين يدي غير الله تعالى خاشعاً ثم تضطرب أطرافه بين يدي الله تعالى فذلك لقصور معرفته عن جلال الله تعالى وعن اطلاعه على سره وضميره.

وتدبر قول تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ * وَتَقَلُّبِكَ فِي السَّاجِدِينَ﴾

❖ في وظائف النية وأسرارها

الثاني في النية: ووظيفتها العزم على إجابة الله تعالى في امتثال أمره بالصلاة وإتمامها والكف عن نواقضها ومفسداتها وإخلاصها من جميع ذلك لوجه الله تعالى رجاء ثوابه وطلب القرية منه، وإن عجزت عن مرتبة عبادته لكونه أهلاً للعبادة التي هي عباد الأحرار. فإذا فاتتك درجة الأحرار والأبرار فلا تفوتك درجة التجار وهو العمل رجاء للعوض، فإن فاتتك هذه المرتبة، فاجلس مع العبيد في مجالسهم وشاركهم في مقاصدهم، إنما يعلمون ويخدمون في الغالب خوفاً من الضرب والعقوبة وهي غاية الخوف من العقاب.

وتقلد في نيتك وقصدك المنة لله وتقدس بإذنه إياك في المناجاة مع سوء أدبك وكثرة عصيانك.

وعظم في نفسك قدر مناجاته وانظر من تناجي وكيف تناجي وبما تناجي وعند هذا ينبغي أن يعرق جبينك من الخجلة، وترتعد فرائصك من الهيبة ويصفر وجهك من الخوف، كما روي في ما تقدر عن بعض أزواج النبي (ص) قالت: (كان رسول الله يحدثنا ونحدثه فإذا حضرت الصلاة فكأنه لم يعرفنا ولم نعرفه، شغلاً بالله عن كل شيء).

وقال الصادق (ع): (الإخلاص بجميع حواصل الأعمال وهو معنى مفتاحه القبول وأدنى حد الإخلاص بذل العبد طاقته، ثم لا يجعل لعلمه عند الله قدراً فيوجب به على ربه مكافأة لعمله، فإنه لو طالبه بوفاء حق العبودية لعجز وأدنى مقام المخلص في الدنيا السلامة من جميع الآثام وفي الآخرة النجاة من النار والفوز بالجنة).

وقال الصادق (ع): (صاحب النية الصادقة، صاحب القلب السليم لأن سلامة القلب من هواجس المحذورات بتخلص النية لله في الأمور كلها).

قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ * إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾

ثم النية تبدو من القلب على قدر صفاء المعرفة وتختلف على حسب اختلاف الإيمان في معنى قوته وضعفه.

وصاحب النية الخالصة، نفسه وهواه معه مقهوران تحت سلطان تعظيم الله والحياء منه.

❖ في أسرار تكبيرة الإحرام

الثالث: تكبيرة الإحرام ومعناها: إن الله سبحانه أكبر من كل شيء أو أكبر من أن يوصف أو من أن يدرك بالحواس، أو يقاس بالناس، فإذا نطق به لساتك فينبغي أن لا يكذبه قلبك، فإن كان في قلبك شيء هو أكبر من الله تعالى يشهد أنك لكذاب، وإن كان الكلام صدقاً كما شهد على المنافقين في قولهم إنه (ص) رسول الله.

فإن كان هواك أغلب عليك من أمر الله وأنت أطوع له منك لله، فقد اتخذته إلهك وكبرته، فيوشك أن يكون قولك: الله أكبر، كلاماً باللسان المجرد وقد تخلف القلب عن مساعدته، وما أعظم الخطر في ذلك لولا التوبة والاستغفار وحسن الظن بكرم الله وعفوه.

قال الصادق (ع): (إذا كبرت فاستصغر ما بين السموات العلى والثرى دون كبريائه).

فإن الله تعالى إذا طلع على قلب العبد وهو يكبر وفي قلبه عارض عن حقيقة تكبيره قال: (يا كاذب أتخدعني؟ وعزتي وجلالي لأحرمك حلوة ذكري ولأحجبك عن قربي والمسرة بمناجاتي).

فاعتبر قلبك حين صلاتك، فإن كنت تجد حلاوتها، وفي نفسك سرورها وبهجتها وقلبك مسرور بمناجاته ملتذ بمخاطباته، فالعم أنه قد صدقك في تكبيرك له، وإلا فقد عرف من سلب لذة المناجاة وحرمان حلوة العبادة، أنه دليل على من تكذيب الله لك، وطردك عن بابه.

❖ في أسرار دعاء التوجه ومعناه:

وأما دعاء التوجه: فأول كلماته قولك: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وليس المراد بالوجه الوجه الظاهر فإنك إنما وجهته إلى جهة القبلة، والله سبحانه تقديس عن أن تحده الجهات حتى تقبل بوجه بدنك عليه، وإنما وجه القلب هو الذي يتوجه به إلى الله فاطر السموات والأرض.

فاتنظر إلى وجه قلبك أمتوجه هو إلى أمانيه وهمه في البيت والسوق وغيرهما، متبع للشهوات أم مقبل على فاطر السموات؟..

وإياك أن تكون مفاتحتك للمناجاة بالكذب والاختلاق فيصرف وجه رحمته عنك، وقبوله في ما بقي على الإطلاق، ولن ينصرف الوجه إلى الله تعالى إلا بالانصراف عما سواه، فإن القلب بمنزلة مرآة وجهها صقيل وظهرها كدر لا يقبل انطباع الصور، فإذا توجهت إلى شيء انطبع فيها، واستدبرت غيره، ولا يمكن انطباعه، ولهذا كانت الدنيا والآخرة ضررتين، كلما قربت من إحداها بعدت عن الأخرى.

فاجتهد في الحال في صرفه إليه وإن عجزت عنه على الدوام فليكن قولك في الحال صادقاً عسى أن يسامحك في الغفلة بعد ذلك.

وإذا قلت: ﴿حَنِيفًا مَسْلَمًا﴾ فينبغي أن تحضر في بالك أن المسلم هو الذي (سلم المسلمون من يده ولسانه).

فإن لم تكن كذلك كنت كاذباً. فاجتهد أن تعزم عليه في الاستقبال وتندم على ما سبق من الأحوال.

وإذا قلت: ﴿وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ فأحضر ببالك الشرك الخفي وأن قوله تعالى ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ﴾ الخ، جعل من يقصد بعبادة ربه، وجه الله وحمد الناس مشركاً.

فاستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير من هذا الشرك، فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه.

وإذا قلت: ﴿محيي ومماتي لله﴾ فاعلم إن هذا حال عبد مفقود لنفسه موجود لسيدته وإنه إن صدر عن غضبه وضاه، قيامه وقعوده ورغبته في الحياة ورهبته من الموت لأمر الدنيا، لم يكن ملائماً للحال.

❖ في أسرار القراءة ووظائفها

الرابع: القراءة ووظائفها لا تكاد تنحصر ولا يحيط بها قوة البشر وإن الاعتناء بشأنها يخرج عن وضع الرسالة لأنها حكاية كلام الله جل جلاله المشتمل على الأساليب العجيبة والأوضاع الغريب، والأسرار الدقيقة، والحكم الأنيقة وليس المقصود منها مجرد حركة اللسان، بل المقصود معانيها وتدبرها، ليستفيد منها حكمة وحقائق، وأسرار وترغيباً وترهيباً وأمرأً ونهياً ووعداً ووعيداً وذكر أنبيائه ونعمه إلى غير ذلك من الفوائد فإذا أنه عدوك ومترصد لصرف قلبك عن الله تعالى حسداً لك على مناجاتك مع الله تعالى، وسجودك له، مع أنه لعن بسبب سجدة واحدة تركها، وأن استعادتك بالله منه، وبترك ما يحبه وتبديله بما يحب الله تعالى، لا بمجرد قولك: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم).

فإن من قصده سبع أو عدو ليفترس أو يقتله فقل أعوذ منك بذلك الحصن الحصين وهو ثابت في مكانه فإن ذلك لا ينفعه بل لا يعيده إلا تبديل المكان فذلك من يتبع الشهوات التي هي محل الشيطان ومكاراة الرحمن، فلا ينفعه مجرد القول، فليقرن قوله بالعزم على التعود بحسن الله تعالى من شر الشيطان وحصنه (لا إله إلا الله) إذ قال تعالى في ما أخبر عنه نبينا (ص) (لا إله إلا الله حصني والمتحصن به من لا معبود له سوى الله تعالى).

فأما من اتخذ إلهه هواه فهو في ميدان الشيطان لا في حصن الله.

ومن دقائق مكانده أن يشغلك في الصلاة بذكر الآخرة وتدبر فعل الخيرات، ليمنعك عن فهم ما تقول وتقرأ.

فاعلم أن كل ما يشغلك عن فهم معاني قراءتك فهو وسواس فإن حركة اللسان غير المقصودة بل المقصود معانيها كما مر.

والناس في القراءة على ثلاثة أقسام: فمنهم من يحرك لسانه بها ولا يتدبر قلبه لها، وهذا من الخاسرين الداخلين في توبيخ الله سبحانه وتهديده بقوله: ﴿ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ ودعاء نبيه (ص): (ويل لمن لأكها بين لحييه ثم لا يتدبرها).

ومنهم من يحرك لسانه وقلبه يتبع اللسان فيسمع ويفهم منه كأنه يسمعه من غيره وهذه درجة أصحاب اليمين.

ومنهم من يسبق قلبه إلى المعاني أولاً ثم يخدم اللسان قلبه فيترجمه وهذه درجة المقربين.

وفرق جلي بين أن يكون اللسان ترجمان القلب كما في هذه الدرجة وبين أن يكون معلمه كما في الدرجة الثانية فالمقربون لسانهم ترجمان يتبع القلب ولا يتبعه القلب.

❖ في تفصيل ترجمة القرآن وما يتعلق بها

وتفصيل ترجمة المعاني على سبيل الاختصار أنك إذا قلت ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فانو به التبرك لا ابتداء القراءة لكلام الله تعالى وافهم أن معناه أن الأمور كلها بالله وأن المراد ههنا بالاسم هو المسمى وإذا كانت الأمور كلها بالله فلا جرم كان: ﴿الحمد لله﴾، ومعناه أن الشكر لله إذ النعم من الله ومن يرى غير الله نعمة، أو يقصد غير الله بشكر لا من حيث أنه مسخر من الله، ففي تسميته وتحميده نقصان بقدر التفاته إلى غير الله.

فإذا قلت: ﴿رب العالمين﴾ فاحضر في قلبك أن العالمين كلها مربوب مثلك بربوبيته، مستغرق في نعمته.

فإذا قلت: ﴿الرحمن الرحيم﴾ فاحضر في قلبك أنواع لطفه لتتفتح لك رحمته فينبعث بها رجائك.

ثم استشعر من قلبك التعظيم والخوف بقولك: ﴿مالك يوم الدين﴾ أما العظمة، فلأنه لا ملك إلا له وأما الخوف فلهول يوم الجزاء والحساب الذي هو ماله.

ثم جدد الإخلاص بقولك: ﴿إياك نعبد﴾ وجدد العجز والاحتياج والتبري عن حولك وقوتك، بقولك: ﴿وإياك نستعين﴾ وتحقق أنه ما تسير طاعتك إلا بإعانتة وإن المنة له إذ وفقك لطاعته، واستخدمك لعبادته وجعلك أهلاً لمناجاته. ولو حرمك التوفيق لكنت من المطرودين مع الشيطان الرجيم اللعين.

ثم إذا فرغت عن التفويض بقولك: ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ وعن التحميد وعن إظهار الحاجة إلى الإعانة مطلقاً فعين سؤالك ولا تطلب إلا أهم حاجاتك وقل: ﴿أهدنا الصراط المستقيم﴾ الذي يسوقنا إلى جوارك ويفضي بنا إلى مرضاتك.

وزده شرحاً وتفصيلاً وتأكيداً واستشهد بالذين أفاض عليهم نعمة الهداية من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين دون الذين غضب الله تعالى عليهم ﴿غير المغضوب عليهم ولا الضالين﴾ من الكفار الزانغين من اليهود والنصارى والصائبين.

فإذا تلوت الفاتحة كذلك فيشبهه أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم فيما أخبر النبي (ص): (قسمت الفاتحة بيني وبين عبدي نصفين فنصفها لي ونصفها لعملي، يقول العبد الحمد لله رب العالمين فيقول الله: حمدني وأثنى علي) وهو معنى قوله: (سمع الله لمن حمده...) الحديث.

فلو لم يكن من صلاتك حظ سوى ذكر الله في جلاله وعظمته فناهيك به غنيمة فكيف ترجوه من ثوابه وفضله.

وكذلك ينبغي أن تفهم ما تقرأ من السورة فلا تغفل عن أمره ونهيه ووعده ووعيد، وموعظة وأخبار أنبيائه وذكر منته وإحسانه. فلكل واحد حق: فالرجاء حق الوعد، والخوف حق الوعيد، والعزم حق الأمر والنهي، والاتعاظ حق الموعظة والشكر حق تذكر المنة والاعتبار حق أخيار الأنبياء.

❖ فيما يتعلق بقراءة القرآن مطلقاً

تفصيل وظيفة قراءة القرآن:

وتفصيل وظيفة قراءة القرآن لا يحتمله هذا المحل لكننا نذكر جملة منه في آخر الفصل.

وبالجملة ففهم معاني القرآن يختلف بحسب درجات الفهم، والفهم يختلف بحسب وفور العلم، وصفاء القلب، ودرجات ذلك لا تنحصر والصلاة مفتاح القلوب، فيها تكشف أسرار الكلمات.

فهذا حق القراءة وهو أيضاً حق الأذكار والتسبيحات ثم يراعي الهيئة في القراءة زيادة على التدبر فترتل ولا تسرد فإن ذلك أيسر للتأمل. ويفرق بين نعماته في آية الرحمة والعذاب والوعد والوعيد والتحميد والتمجيد، وروي أنه يقال لقارئ القرآن: (اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا).

ومن وظائف القراءة من الأثر قول الصادق (ع): (من قرأ القرآن ولم يخضع له ولم يرق قلبه ولم ينشئ حزناً ورجلاً في سره، فقد استهان بعظيم شأن الله تعالى وخسر خسراً مبيناً).

فقارئ القرآن يحتاج إلى ثلاثة أشياء: قلب خاشع وبدن فارغ، وموضع خال، فإذا خشع لله قلبه، فر من الشيطان الرجيم. قال الله تعالى ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فإذا فرغ نفسه من الأسباب تجرد قلبه للقراءة فلا يعترضه عارض، فيجرمه نور القرآن وفوائده.

وإذا اتخذ مجلساً خالياً واعتزل عن الخلق بعد أن أتى بالخصلتين الأوليين: خضوع القلب وفراغ البدن، استأنس روحه وسره بالله، ووجد حلاوة مخاطبات الله عباده الصالحين، وعلم لطفه بهم ومقام اختصاصه لهم، بفنون كراماته، وبديع إشاراته فإذا شرب كأساً من هذا المشرب لا يختار على ذلك الحال حالاً ولا على ذلك الوقت وقتاً، بل يؤثره على كل طاعة وعبادة، لأن فيه المناجاة مع الرب بلا واسطة.

فانظر كيف تقرأ كتاب ربك، ومنشور ولايتك وكيف تجيب أوامره وتتجنب نواهيه وكيف تتمثل حدوده ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ فرتله ترتيلاً وقف

عند وعده ووعدته، وتفكر في أمثاله ومواعظه، واحذر أن تقع من إقامتك حروفه أي: ترتيله في إضاعة حدوده.

❖ في وظائف الركوع وأسراره

الركوع:

فإذا وصلت فجدد على قلبك ذكر كبرياء الله تعالى وعظمته وخساسة كل ما سواه وتلاشيه فارفع يديك له، وقل: (الله أكبر) مستجيراً في رفعك بعفو الله من عقابه، ومتبعاً سنة نبيه، ثم تستأنف له ذلاً وتواضعاً بروكوعك، واجتهد في ترقيق قلبك، وتجديد خشوعك واستشعر ذلك وعزز مولاك واتضاعك وعلو ربك وتستعين على تقرير ذلك في قلبك بلسانك فتسبح ربك وتنزهه، وتشهد له بالعظمة والكبرياء وأنه أعظم من كل عظيم بقولك: (سبحان ربي العظيم وبحمده) وتكرر ذلك على لسانك وقلبك لتؤكد بالتكرار، وتقرر في ذاتك بالتكرار وكلما أكثر في فيه، وازدادت خضوعاً ردت عند مولاك رفعة.

ثم ترتفع من ركوعك راجياً أنه راحم ذلك ويؤكد الرجاء في قلبك بقولك: (سمع الله لمن حمدته). أي: أجاب الله لمن حمدته وشكره.

ثم تردف ذلك بالشكر المتقاضي للمزيد فتقول: الحمد لله رب العالمين.

وفي ذلك غاية في الخضوع ومزيد التذلل إذا راعيت ذلك بالحقيقة.

وقد قال الصادق (ع): (لا يركع عبد الله تعالى ركوعاً على الحقيقة إلا زينه الله تعالى بنور بهانه وأظله في ظلال كبريائه وكسوة أصفائه، والركوع أول والسجود ثان، فمن أتى بمعنى الأول صلح للثاني. وفي الركوع أدب وفي السجود قرب ومن لا يحسن الأدب لا يصلح للقرب).

فاركع ركوع خاضع لله بقلبه، متذلل، وجل تحت سلطانه، خافض له بجوارحه خفض خائف، حزين على ما يفوته من فوائد الراكعين.

وحكي أن ربيع بن خثيم كان يسهر بالليل إلى الفجر في ركوع واحد فإذا أصبح تزفر وقال: (أوه، سبق المخلصون وقطع بنا). واستوف ركوعك باستواء ظهرك، وانحط عن همتك في القيام بخدمته إلا بعونه وقر بالقلب عن وساوس الشيطان وخدائعه ومكائده، فإن الله تعالى يرفع عباده بقدر تواضعهم له، ويهديهم إلى أصول التواضع والخشوع والخشوع بقدر اطلاع عظمته على سرائرهم.

السادس: في وظائف السجود وأسراره

السجود وهو أعظم مراتب الخضوع وأحسن درجات الخشوع وأعلى مراتب الاستكانة وأحق المراتب باستيجاب القرب إلى الله تعالى وتلقي أنوار رحمته، ومعاطف كرمه كما نبه عليه الكتاب الكريم في أسره لنبيه (ص)، أن يسجد ووعد على ذلك بأن يقرب.

فإذا أردت السجود فاستحضر عظمة الله تعالى زيادة على ما حضر حالة الركوع، وكبره رافعاً وأنت قائم إهول إلى السجود ومكن أعز أعضائك وهو الوجه من أذل الأشياء وهو التراب فإن أمكنك أن لا تجعل بينهما حائلاً فتسجد على الأرض فافعل فإنه أجلب للخشوع وأدل على الذل والخضوع.

وهذا هو السر في منع الشريعة من السجود على ما يأكله الآدميون ويلبسونه لأنه من متاع الدنيا وأهلها الذين اغتروا بغرورها وركنوا إلى زخرفها واطمأنوا إليها فاسلمتهم إلى المهالك، أحوج ما كانوا إليها.

وإذا وضعت نفسك موضع الذل فاعلم أنك وضعتها موضعها، ورددت الفرع إلى أصله، فإنك من التراب خلقت وإليه رددت، ثم تخرج منها مرة أخرى.

فاحضر في بالك نقلاتك منه، وإليها ثم خروجك منها بتكرر السجود كما ذكر الله تعالى لك بقوله: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾.

وعند هذا جدد على قلبك عظمة الله تعالى وعلوه وقل: سبحان ربي الأعلى وبحمده وأكده بالتكرار فإن المرة الواحدة ضعيفة الأثر في القلب.

فإذا رقى قلبك وظهر ذلك فليصدق رجاؤك في رحمة ربك فإن رحمته تتسارع إلى الضعف والذل، لا إلى التكبر والبطر فارفع رأسك مكبراً وسائلاً ومستغفراً من ذنوبك ثم أكد التواضع بالتكرار وعد إلى السجود ثانياً كذلك فبزيادته يزيد القرب منك وبتكراره تنالك السوانح الإلهية وتظهر اللوامع الغيبية إذا وقع على وجهه.

قال الصادق (ع): (ما خسر والله قط من أتى بحقيقة السجود ولو كان في العمر مرة واحدة، وما أفلح من خلا بربه في مثل ذلك الحال شبيهاً بمخادع نفسه غافلاً لاهياً عما أعد الله للساجدين من أنس العاجل وراحة الآجل ولا بعد عن الله أبداً من أحسن تقربه في السجود ولا قرب إليه أبداً من أساء أدبه وضيع حرمة بتعليق قلبه بسواه في حال سجوده.

فاسجد سجود متواضع لله ذليل علم أنه خلق من تراب تطأه الخلق، وانه ركب من نطفة يستفذرهما كل واحد، وكون ولم يكن وقد جعل الله تعالى معنى السجود سبب التقرب إليه بالقلب والسر والروح فمن قرب منه بعد من غيره.

ألا ترى في الظاهر أنه لا يستوى حال السجود إلا بالتواري عن جميع الأشياء والاحتجاب عن كل ما تراه العيون؟

كذلك أمر الباطن. فمن كان قلبه متعلقاً في صلاته بشيء من دون الله فهو قريب من ذلك الشيء بعيد عن حقيقة ما أراد الله منه في صلاته.

قال الله عزوجل: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ وقال رسول الله: (قال الله تعالى: ما اطلع على قلب عبد فأعلم فيه حب الإخلاص لطاعتي لوجهي وابتغاء مرضاتي إلا توليت تقويمه وسياسته ومن اشتغل في صلاته فهو من المستهزئين بنفسه ومكتوب اسمه في ديوان الخاسرين).

السابع: في وظائف التشهد وأسراره:

التشهد:

إذا جلست للتشهد بعد هذه الأفعال الدقيقة والأسرار العميقة المشتملة على الأخطار والأهوال العظيمة فاستشعر الخوف التام، والرغبة والحياء والوجل، أن يكون جميع ما سلف منك غير واقع على وجهه ولا محصلاً لوظيفته وشرطه، ولا مكتوباً في ديوان المقبولين، فاجعل يدك صفراً من فوائدها إلا أن يتداركك الله برحمته ويقبل عملك الناقص بفضله.

وارجع إلى مبدأ الأمر وأصل الدين، واستمسك بكلمة التوحيد وحصن الله تعالى الذي من دخله كان آمناً، إن لم يكن حصل في يدك غيره واشهد له بالواحدية وأحضر رسوله المكرم ونبيه المعظم ببالك واشهد له بالعبودية والرسالة وصل عليه وعلى آله مجدداً عهد الله تعالى بإعادة كلمتي الشهادة متعرضاً بهما لتأسيس مراتب السعادة، فإنهما أول الوسائل وأساس الفواضل وجماع أمر الفضائل مرتقياً لإجابته (ص) لك بصلاتك عشراً من صلاته إذا قمت بحقيقة صلاتك عليه التي لو وصل إليك منها واحدة أفلحت أبداً.

قال الصادق (ع): (التشهد ثناء على الله تعالى فكن عبداً له في السر خاضعاً له في الفعل كما أنك عبد له بالقول والدعوى وصل صدق بلسانك بصفاء صدق سرك، فإنه خلقك عبداً وأمرك أن تعبد به بقلبك ولسانك وجوارحك وأن تحقق عبوديتك له برويته لك وتعلم أن نواصي الخلق بيده فليس لهم نفس ولا لحظة إلا بقدرته ومشيته وهو عاجزون عن إتيان أقل شيء في مملكته إلا بإذنه وإرادته.

قال الله عزوجل: ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخَيْرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ فكن لله عبداً شاكراً بالفعل كما أنك عبد ذاكراً بالقول والدعوى وصل صدق لسانك بصفاء سرك فإنه خلقك، فعزوجل أن تكون إرادة ومشية لأحد إلا بسابق إرادته ومشيته فاستعمل العبودية في الرضاء بحكمه والعبادة في أداء أوامره.

وقد أمرك بالصلاة على نبيه محمد (ص) فأوصل صلاته بصلاته، وطاعته بطاعته، وشهادته بشهادته وانظر أن لا يفوتك بركات معرفة حرمة فتحرم من فائدة صلاته وأمره بالاستغفار لك والشفاعة فيك إن أتيت بالواجب في الأمر والنهي والسنن والأدب وتعلم جليل مرتبته عند الله عزوجل.

الثامن: في وظائف السلام وأسراره:

التسليم:

إذا فرغت من التشهد فأحضر نفسك بحضرة سيد المرسلين والملائكة المقربين وقل: (السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته)، إلى آخر التسليم المستحب... ثم أحضر في بالك النبي (ص) وبقية الأنبياء الله والأئمة (ع) والحفظة لك من الملائكة المقربين المحصنين لأعمالك، وقل: (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) ولا يطلق لسانك بصيغة الخطاب من غير حضور مخاطب في ذهنك فتكون من العابثين واللاعبيين.

وكيف تسمع الخطاب لمن لا تقصد، لولا فضل الله تعالى ورحمته الشاملة، ورأفته الكاملة في اجتزائه ذلك من أصل الواجب، وإن كان بعيداً عن درجات القبول منحطاً عن أوج القرب والوصول.

وإن كنت إماماً لقوم فاقصدهم بالسلام مع من تقدم من المقصودين وليقصدوا هم الرد عليك أيضاً، ثم ليقصدوا مقصدك بسلام ثان، فإذا فعلتم ذلك فقد أديتم وظيفة السلام، واستحققتم من الله تعالى مزيد الإكرام.

وأصل السلام مشترك بين التحية الخاصة وبين الاسم المقدس من أسماء الله تعالى، والمعنى هنا على الأول ظاهر، وعلى الثاني يكون مستعاراً في الخلق بإذن الله للتفاؤل بالسلام والأمان من عذاب الله تعالى لمن قام بحدوده.

قال الصادق (ع): (معنى السلام في دبر كل صلاة الأمان. أي من أدى أمر الله وسنة ونبيه (ص) خاضعاً له خاشعاً منه قلبه، فله الأمان من بلاء الدنيا والبراءة من عذاب الآخرة. والسلام أسم من أسماء الله تعالى أودعه خلقه ليستعملوا معناه في المعاملات والأمانات والإصافات وتصديق مصابيحهم وتؤدي فيما بينهم وصحبة معاشرتهم وإذا أردت أن تضع السلام موضعه وتؤدي معناه، فاتق الله ليسلم منك دينك وقلبك وعقلك لا تدنسها بظلمة المعاصي. ولتسلم حفظك لا تبرمهم ولا تملهم، وتوحشهم منك بسوء معاملتك معهم، ثم صديقك ثم عدوك فإن من لم يسلم منه وهو أقرب إليه فالأبعد أولى. ومن لا يضع السلام بمواضعه هذه فلا سلام ولا تسليم وكان كاذباً في سلامه وإن أفشاه في الخلق).

تتمة الفصل:

إذا أتيت بالصلاة على ما وصفت لك، فاختمها بالخشوع والخضوع، والخوف من منقلب الرد وخيبة الحرمان. واستشعر شكر الله تعالى على توفيقه لإتمام هذه الطاعة، وتوهم أنك مودع في صلاتك هذه، وإنك ربما لا تعيش بمثلها كما قال (ص): (صل صلاة مودع) ثم استشعر بقلبك الحياء من التقصير في

الصلاة والخوف من أن تلف فبضرب بها وجهك فإذا فعلت ذلك رجوت أن تكون من الخاشعين ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴾ ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ﴾. واعرض صلاتك على هذا الوصف. فبقدر ما يتيسر منها كذلك ينبغي أن تفرح وترجو، وعلى ما يفوتك ينبغي أن تتحسر وتجتهد في مداواة قلبك فإن صلاة الغافل مربع إبليس للعين نسأل الله أن يعمرنا برحمته، ويتعمدنا بمغفرته ولا وسيلة لنا إلا الاعتراف بالعجز عن القيام بوظائف طاعته.

❖ في وظائف المصلي عقب الصلاة

ثم عقب ذلك كله بالاشتغال بالتعقيب من الذكر والدعاء، وبالغ في الإخلاص والانقطاع والابتهاال إلى الله تعالى في مغفرة ذنبك وقبول عملك وتلقي طاعتك بيد الرحمة فإن الفضل عميم والكرم جسيم والرحمة واسعة والجود فائض والمحل قابل.

وخلاصة وظائف الدعاء عقب الصلاة وغيرها ما قاله مولانا الصادق (ع): (أحفظ أدب الدعاء وأنظر من تدعو وكيف تدعو ولما تدعو وحقق عظمة الله تعالى وكبريائه وعابن بقلبك علمه بما في ضميرك واطلاعه على سره وما يكن فيه من الحق والباطل واعرف طرق نجاتك وهلاكك كي لا تدعو الله تعالى بشيء عسى فيه هلاكك وأنت تظن أن فيه نجاتك).

قال الله تعالى: ﴿ يَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ وتفكر ماذا تسأل والدعاء استجابة الكل منك للحق وتدويب المهجة في مشاهدة الرب، وترك الاختيار جمعياً وتسليم الأمور كلها- ظاهرها وباطنها- إلى الله تعالى فإن لم تأت بشرط الدعاء فلا تنتظر الإجابة ﴿ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴾ فعلق تدعوه بشيء قد علم من نيتك بخلاف ذلك.

قال بعض الصحابة لبعضهم: (أنتم تنتظرون المطر بالدعاء وأنا أنتظر الحجر).

وأعلم أنه لو لم يكن الله أمرنا بالدعاء لكننا إذا أخلصنا الدعاء تفضل علينا بالإجابة فكيف وقد ضمن ذلك لمن أتى بشرائط الدعاء.

وسئل رسول الله (ص) عن اسم الله الأعظم فقال: (كل اسم من أسماء الله أعظم ففرغ قلبك عن كل من سواه وادعه بأي اسم شئت فليس في الحقيقة لله اسم دون اسم بل هو الله الواحد القهار).

وقال النبي (ص): (إن الله لا يستجيب الدعاء من قلب لاه...).

فإذا أتيت بما ذكرت لك من شرائط الدعاء وأخلصت سره لوجهه فابشر بإحدى ثلاث إما أن يعجل لك ما سألت وإما أن يدخر لك ما هو أعظم منه، وإما أن يصرف عنك من البلاء ما لو أرسله عليك لهلكت.

قال النبي (ص): (قال الله تعالى: من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين).

قال الصادق (ع): (لقد دعوت الله تعالى مرة واحدة فاستجاب لي ونسيت الحاجة لأن استجابته بإقباله على عبده عند دعوته، أعظم واجل مما يريد منه العبد ول كانت الجنة ونعيمها الأبد ولكن لا يعقل ذلك إلا العاملون المحبون العارفون الفائزون صفوة الله وخواصه، انتهى) هو كاف في وظيفة الدعاء.

وإن عقت بشيء من القرآن فينبغي أن نتدبر بعض وظائفه لتقوم بشروطه وتتمثل برسوم حدوده كما ينبغي ذلك لكل قارئ وما ورد في ثواب قراءة القرآن والحث عليه يخرج عن موضع الرسالة فنذكر مهم وظائفه ملخصاً وهو أمور:

❖ في وظائف القارئ عند القراءة

الأول: حضور القلب وترك حديث النفس.

قيل في تفسير قوله تعالى: ﴿يَا بَحِي خذ الكتاب بقوة﴾ أي: بجد واجتهاد وأخذ بالجد أن يتجرد عند قراءته بحذف جميع المشغلات والهموم عنه.

الثاني: التدبر وهو طور وراء حضور القلب فإن الإنسان قد لا يتفكر في غير القرآن على سماع القرآن وهو لا يتدبر والمقصود من التلاوة والتدبر.

قال سبحانه: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾، وقال تعالى ﴿ وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾. لأن الترتيل يمكن الإنسان من تدبر الباطن. قال (ص): (لا خير في عبادة لا فقه فيها، ولا خير في قراءة لا تدبر فيها).

الثالث: التفهم وهو أن يستوضح من كل آية ما يليق بها إذ القرآن يشتمل على ذكر صفات الله تعالى وأفعاله وأحوال أنبيائه والمكذابين لهم، وأحوال ملائكته وذكر أوامره وزواجره، وذكر الجنة والنار والوعد والوعيد فليتأمل معاني هذه الأسماء والصفات لينكشف له أسرارها فإن تحتها أسرار الدقائق وكنوز الحقائق.

قال ابن مسعود: (من أردا ان يعلم علم الأولين والآخرين فعليه بالقرآن).

قال الله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا﴾. إلخ

وقال علي (ع): (لو شئت لأوقرت سبعين بعيراً من تفسير فاتحة الكتاب).

فمن لم يتفهم معاني القرآن في تلاوته وسماعه ولو في أدنى المراتب ودخل في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾.

الرابع: التخلي عن موانع الفهم: فإن أكثر الناس منعوا عن فهم القرآن لأستار وحجب أسدلها الشيطان على قلوبهم فحجبت عن عجائب أسرارهِ قال (ص): (لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى الملكوت) ومعاني القرآن وأسراره من جملة الملكوت.

والحجب الموانع منها: الاشتغال بتحقيق الحروف، وإخراجها من مخارجها والتشديق بها من غير ملاحظة المعنى وقيل أن المتولي لحفظ ذلك شيطان وكل بالقراء ليصرفهم عن معنى كلام الله تعالى، فلا يزال يحملهم على ترديد الحرف ويخيل إليهم انه لم يخرج من مخرجه فيكون تأمله مقصوراً على مخارج الحروف فأنى تنكشف له المعاني؟

وأعظم ضحكة للشيطان من كان مطيعاً مثل هذا التلبس.

ومنها: أن يكون مبتلى من الدنيا بهوى مطاع فإن ذلك سبب لظلمة القلب كالصدا على المرآة فيمنع جلية الحق أن يتجلى فيه، وهو أعظم حجاب للقلب، وبه حجب الأكثرين. وكلما كانت الشهوات أكثر تراكمًا على القلب، كان البعد عن أسرار الله تعالى أعظم.

ولذلك قال (ص): (الدنيا والآخرة ضرطان بقدر ما يقترب من إحداهما يبتعد عن الأخرى).

الخامس: أن يخصص نفسه بكل خطاب من القرآن من أمر أو نهي أو وعد أو وعيد أنه هو المقصود.

وكذلك إن سمع قصص الأولين والأنبياء عليهم السلام علم أن مجرد القصة غير المقصود الاعتبار ولا يعتقد أن كل خطاب خاص في القرآن المراد به الخصوص فإن القرآن وسائر الخطابات الشرعية واردة على طريقة (إياك أعني واسمعي يا جارة) وهي كلها نور، وهدى، ورحمة للعالمين.

ولذلك أمر الله تعالى الكافة بشكر نعمة الكتاب فقال: ﴿أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ إذا قدر أنه المقصود لم يتخذ دراسة القرآن عملاً، بل قراءته كقراءة العبد كتاب مولاه الذي كتبه إليه ليتدبره ويعمل بمقتضاه.

وقال حكيم: (هذا القرآن أتانا من قبل ربنا بعهوده نتدبرها في الصلاة ونقف عليها في الخلوات، ونعدها في الطاعات بالسنن المتبعات).

السادس: التأثر وهو أن يتأثر قلبه بآثار مختلفة بحسب اختلاف الآيات فيكون له بحسب كل فهم حال ووجد يتصف به عندما يوجه نفسه في كل حالة إلى الجهة التي فهمها: من خوف أو حزن أو رجاء أو غيره فيستعد لذلك وينفعل ويحصل له التأثر والخشية ومهما قويت معرفته فكانت الخشية أغلب الأحوال على قلبه.

إن التقصير غالب على العارفين فلا يرى ذكر المغفرة والرحمة إلا مقروناً بشروط العارف على نيلها كقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ فإنه قرن المغفرة بهذه الشرط الأربعة.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ * إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ إلى آخر السورة وذكر فيه أربعة شروط.

وحيث أوجز واختصر ذكر شرطاً واحداً لكل الشرايط فقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ إذ كان الإحسان جامعاً لكل الشرايط.

وتأثر العبد بالتلاوة أن يصير بصفة الآية المتلوة. فعند الوعيد يتضاعف من خشية الله وعند الوعد يستبشر فرحاً بالله، وعند ذكر الله وأسمائه يتطأطأ خضوعاً لجلاله، وعند ذكر الكفار في حق الله تعالى، ما يمتنع عليه، كالصاحبة والولد، يغض صوته وينكسر في باطنه حياء من قبح أفعالهم ويكبر الله ويقدهسه عما يقول الظالمون وعند ذكر الجنة ينبعث بباطنه شوق إليها وعند ذكر النار ترتعد فرائصه خوفاً منها. ولما قال رسول الله لأبن مسعود: (إقرأ علي).

قال: (فافتتحت سورة النساء، فلما بلغت ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ رأيت عينيه تذرفان بالدمع فقال لي: (حسبك الآن).

وذلك لاستغراق تلك الحالة لقلبه بالكلية.

والقرآن إنما يراد لهذه الأحوال واستجلابها إلى القلب والعمل بها.

قال رسول الله (ص): (إقرأوا القرآن ما اتلفت عليه قلوبكم ولانت له جلودكم فإذا اختلفتم فليستم تقرأونه).

وقال الله تعالى: ﴿نَمَّا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ وإلا فالمؤونة في تحريك اللسان خفيفة.

وروي أن رجلاً جاء إلى النبي ليعلمه القرآن فعلمه فأنتهى إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ فقال يكفني هذا وانصرف.

فقال رسول الله: (انصرف الرجل وهو فقيه)ز

وأما التالي باللسان المعرض عن العمل بالقلب، فجديراً أن يكون المراد يقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ الآية.

وإنما حظ اللسان تصحيح الحروف بالترتيل وحظ العقل تفسير المعاني وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالإتजार والإيتمار.

السابع: الترقى: وهو أن يوجه قلبه وعقله إلى القبلة الحقيقية فيسمع الكلام من الله تعالى لا من نفسه.

و درجات القراءة ثلاث، أدناها أن يقدر العبد كأنه يقرأ على الله تعالى، وأقفاً بين يديه، وهو ناظر إليه ومستمتع منه فيكون حاله عند هذا التقدير السؤال والتضرع والابتهاال.

والثانية: أن يشهد بقلبه كأنه سبحانه يخاطبه بأطافه ويناجيه بإتعامه وإحسانه وهو في مقام الحياء والتعظيم لمنن الله والإصغاء إليه والفهم منه.

الثالثة: أن يرى في الكلام المتكلم وفي الكلمات الصفات، فلا ينظر إلى قلبه ولا إلى قراءته إلى التعلق بالأنعام من حيث هو منعم عليه، بل يقصر الهم على المتكلم ويقف فكره عليه ويستغرق مشاهدته وهذه درجة المقربين.

ومنها أخبر جعفر بن محمد الصادق(ع) بقوله: (لقد تجلى الله لخلقه في كلامه ولكنهم لا يبصرون) وقال أيضاً وقد سألوه عن حال لحقته في الصلاة حتى خر معشياً عليه، فلما أفاق قيل له في ذلك فقال: (ما زلت أردد هذه الآية على قلبي حتى سمعتها من المتكلم بها فلم يثبت جسمي بمعاينة قدرته).

الثامن: التبري: والمراد به أن يتبرأ من حوله وقوته فلا يلتفت إلى نفسه بعين الرضا والتزكية.

فإذا تلا آيات الوعد ومدح الصالحين، حذف نفسه عن درجة الاعتبار وشهد فيها الموقنين والصديقين ويتشوق إلى أن يلحقه الله بهم.

وإذا تلا آيات المقت والذم للمقصرين شهد نفسه هناك وقدر أنه المخاطب خوفاً وإشفاقاً وإلى هذه المرتبة أشار أمير المؤمنين (ع) وسيد الوصيين (ع) في الخطبة التي يصف فيها المتقين بقوله: (وإذا مروا بآية فيها تخويف أصغوا إليها مسامح قلوبهم وظنوا أن زفير جهنم في آذانهم) إلخ.

ومن رأى نفسه بصورة التقصير في القراءة كان ذلك سبب قوربه.

ومن شاهد نفسه بعين الرضا فهو محجوب بنفسه.

فهذه نبذة من وظائف القراءة وأسرارها وفقنا الله لتلقي الأسرار وألحقنا بعبادة الأبرار.

❖ في وظائف سجدة الشكر

وإذا وصلت إلى هذا المقام فاسجد سجدة الشكر شكراً لله سبحانه على مزيد الأنعام وأحضر إنعامه لديك بيالك، وأيديه عندك في جميع أحوالك، وقل شكراً شكراً إلى تمام ما يمكنك من المزي، فأنت مع ذلك مقصر عما يجب عليك من التحميد وغاية ما يجب الاعتراف بالتقصير، والاستغفار من كل قليل وكثير.

اللهم ارزقنا العمل بما كشفت لنا من أسرار الآيات، وزدنا فيضاً وعرفاناً يكونا لنا سلماً إلى نيل تلك الدرجات، ووفقنا لدرك الحق بالتوفيق وثبت أقدامنا على مقامات الصدق وحقائق التحقيق بفضلك وجودك العميم إنك أنت الوهاب الكريم.

منافيات الصلاة

الفصل الثالث

في ما يبطل الصلاة وينافئها
في المنافيات:

وهي في هذا المقام ما أبطلت الصلاة أو نقصت كمالها من جهات قلبية. وهي تنقسم إلى منافيات الكمال وإلى منافيات الصحة.

وضابط الأول ما ينافي الإقبال بالقلب على الله تعالى من حديث النفس، والالتفات إلى أمر دنيوي بل الفكر في غير متعلق الصلاة وإن كان أخروياً فإنه من دقائق مكائد الشيطان فإن المطلوب لله تعالى والموجب للقبول إنما هو إقبال على كل فعل من أفعالها حال الاشتغال فيه كما نبه عليه بقوله (ص): (وإنما لك من صلاتك ما أقبلت عليه بقلبك).

ويدخل في القسم ما عده الفقهاء من المكروهات كمدافعة الأخبثين والنعاس والتنخم والبصاق والعبث وغيرها فإنها مشتركة في مضادة الإقبال ومنافية للخشوع.

وأما منافيات الصحة فضابطها منافاة الإخلاص واستكثار الطاعة، ويدخل في الأول: الرياء بأقسامه، وفي الثاني العجب والكلام في كل منهما مستوفى وذكر أقسامهما وأحكامهما يخرج عن وضع الرسالة، لكننا نذكر المهم.

واعلم أن الوعيد على هاتين الآفتين في الكتاب والسنة كثير يخرج عن حد الحصر، قال الله تعالى: ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ * * الَّذِينَ هُمْ يُرَاؤُونَ * * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾.

وقال النبي (ص): (إن النار وأهلها يعجون من أهل الرياء) فقيل: (يا رسول الله وكيف تعج النار؟) قال: (من حر النار التي يعذبون فيها).

وعنه (ص) قال: (المرائي يوم القيامة ينادى بأربعة أسماءك يا كافر يا فاجر يا غادر يا خاسر، ضل سعيك وبطل أجرك ولا خلاق لك، التمس الأجر ممن كنت تعمل له يا مخادع).

وعنه (ص): (إن الله تعالى يقول: أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل عملاً فأشرك فيه غيري فنصبي له فأنا لا أقبل إلا ما كان خالصاً لي).

وعنه (ص): (إن الجنة تكلمت وقالت إني حرام على كل بخيل ومراء).

وعنه (ص): (إن أول من يدعى القيامة رجل جمع القرآن ورجل قتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول الله عزوجل للقارئ: (ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي؟)

فيقول: (بلى يا رب).

فيقول: (ما علمت في ما علمت؟).

فيقول: (يا رب قمت به في آناء الليل وأطراف النهار).

فيقول الله: (كذبت) وتقول الملائكة: (كذبت) ويقول الله تعالى: (إنما أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك).

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله تعالى: (ألم أوسع عليك حتى لم أدعك محتاجاً إلى أحد؟..)

فيقول: (بلى يا رب).

فيقول: (فما عملت في ما آتيتك).

قال: (كنت أصل الرحم وأصدق).

فيقول الله تعالى: (كذبت) وتقول الملائكة: (كذبت) ويقول الله تعالى: (بل أردت أن يقال فلان جواد وقد قيل ذلك).

ويؤتى بالذي قتل في سبيل الله فيقول الله تعالى: (ما فعلت؟).

فيقول: (أمرت بالجهاد في سبيل الله فقاتلت حتى قتلت).

فيقول تعالى: (كذبت) وتقول الملائكة: (كذبت) ويقول الله تعالى: (بل أردت ان يقال شجاع جزئ فقد قيل ذلك).

ثم قال رسول الله: (أولئك خلق الله تسعر بهم نار جهنم).

وعن الصادق عليه السلام: (إياك والرياء فإنه من عمل لغير الله وكله الله إلى من عمل له).

وعنه عليه السلام في قول الله عز وجل: ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾.

قال: (الرجل يعمل شيئاً من الثواب لا يطلب به وجه الله إنما يطلب تزكية النفس يشتهي أن يسمع به الناس فهذا الذي أشرك بعبادة ربه).

ثم قال: (ما من عبد أسر خيراً فذهبت الأيام حتى يظهر الله له خيراً وما عبد أسر شراً فذهبت الأيام حتى يظهر له شراً)

والأثر في ذلك يطول.

وقال الله تعالى في ذم العجب: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتُمْ كَثْرَتَكُمْ﴾

وذكر ذلك في معرض الإنكار.

وقال تعالى: ﴿ هُمْ يَحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ وهو أيضاً راجع إلى العجب بالعمل على وجه.

وقال النبي (ص): (ثلاث مهلكات: شح مطاع، وهوى متبع، وإعجاب المرء بنفسه).

وقال الصادق عليه السلام: (للعجب درجات: منها أن يزين للعبد سوء عمله فيراه حسناً فيعجبه، ويحسب أنه يحسن صنيعاً).

وعنه (ع) قال: (أتى عالم عابداً فقال له: (كيف صلاتك) قال: (مثلي يسأل عن صلاته وأنا أعبد الله منه كذا وكذا؟) قال:(وكيف بكأوك؟) قال: (أبكي حتى تجري دموعي) فقال له العالم: (فإن ضحكك وأنت خائف، خير من بكائك وأنت مدل، إن المدل لا يصعد من علمه شيء).

وعن احدهما (ع) قال: (دخل المسجد رجلا: أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صديق والعابد فاسق).

وذلك أن يدخل المسجد العبد مدلاً بعبادته فيدل بها فتكون فكرته في ذلك ويكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه ويستغفر الله عز وجل مما صنع من الذنوب.

وقال النبي (ص): (قال الله تعالى لداوود: (يا داوود بشر المذنبين وانذر الصديقين).

قال: (كيف أبشر المذنبين وأنذر الصديقين) قال: (يا داوود بشر المذنبين إني أقبل التوبة وأعفو عن الذنب وانذر الصديقين أن لا يعجبوا بأعمالهم فإنه ليس عبد يعجب بالحسنات إلا هلك).

والعم أن الرياء على ضربين: رياء محض ورياء مختلط.

فالمحض: أن يريد بعمله نفع الدنيا وهو أعم من أن يتوصل به إلى محرم أو مباح أو ليحذر من أن ينظر إليه بعين النقص ولا يعد من الخاصة.

والمختلط: أن يقصد به ذلك مع التقرب إلى الله تعالى ولاكهما مفسد للعمل بل الأول ساقط عن درجة البحث والاعتبار.

والثاني هو الإشراف بالله تعالى في العبادة التي قد تقدم أنه يتركها لشريكه وهذا هو الشرك الخفي في هذه الأمة الذي أشار إليه النبي (ص) بأنه في أمته فاش.

ثم المقصود هنا ليس هو البحث عن الفعل الذي يقع ابتداء رياء لأن ذلك باطل في نفسه ولا يعرض لقلوب العارفين وإنما الكلام هنا فيما يبتدئ الإنسان به من العبادة خالصاً لله تعالى لا يريد به غيره، ثم يعرض له ما ينافي الإخلاص على وجه الشوب اللطيف الذي ينبغي التنبيه عليه في مثل هذا المقام وهو يأتي على وجوه، بعضها خفي وبعضها جلي.

أحدها: أن يعقد الصلاة مثلاً على الإخلاص المحض والطاعة والإقبال على الله تعالى بها وهو خال من نظر الناس عليه، فيدخل عليه داخل أو ينظر إليه ناظر فيقول له الشيطان: (زد صلاتك حسناً حتى ينظر إليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يفتابك).

فتخشع جوارحه وتسكن أطرافه ويحسن صلاته وهذا هو الرياء الطارئ الظاهر، الذي لا يخفى على المبتدئين من المريدين، ولكنه في الجملة من شوائب القرب ومنافي الإخلاص.

وثانيها: أن يكون قد فهم من هذه الآفة وأخذ منها حذره، فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه، ويستمر في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير ويقول: أنت متبوع ومقتدى بك، ومنظور إليك وما تفعله يؤثر عنك ويتأسى فيه بك غيرك، فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت، وعليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك، فعساه أن يقتدى بك في الخشوع وتحسين العبادة فتكون شريك من اقتدى بك وهلك جزاء للحديث المشهور: (إن من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من يعمل بها إلى يوم القيامة).

وهذه المكيدة أعظم من الأولى وأدق، وقد ينخدع بها من لا ينخدع بالأولى وهو أيضاً عين الرياء ومبطل إخلاص فإنه إذا كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيراً لا يرتضي لغيره تركه، فلم لم يرتضي لنفسه ذلك في الخلوة؟

ولا يمكن أن يكون غيره أعز عليه من نفسه.

فهذا عين التلبيس بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستنار قلبه فانتشر نوره إلى غيره، فيكون له الثواب عليه.

وأما فعل الأول فمحض النفاق والتلبيس فيطلب يوم القيامة بتلبيسه ويعاقب على إظهاره من نفسه ما ليس متصفاً به وإن أتيب المقتدى به.

وثالثها: وهو أدق مما قبلها أن ينتبه العبد لذلك، وإنه مكيدة من الشيطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والمشاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الإخلاص في أن تكون صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملاء ويستحي من نفسه وربه، أن يخشع لمشاهدة خلقه، تخشعاً زائداً على عبادته فيقبل على نفسه في الخلاء ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيها في الملاء، ويصلي أيضاً في الملاء كذلك، للعلة المذكورة وهذا أيضاً من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملاء فلا يكون قد فرق بينهما فالتفتاته في الخلاء والملاء إلى الخلق بل الإخلاص أن يكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة الخلق على وتيرة واحدة.

فكأن نفس صاحب هذه الخطرة ليست تسمح بإساءة الصلاة بين الناس ثم يستحي من نفسه أن يكون في صورة المرئين ويظن بأن ذلك يزول بأن يستوي في صلاته في الخلاء والملاء.

هيهات!... بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات والبهائم في الخلاء والملاً جمعياً وهذا شخص مشغول بهم بالخلق في الخلاء والملاً جمعياً وهذا من المكائد الخفية.

وإلى هذه الإشارة في الحديث النبوي: (لا يكمل إيمان العبد حتى يكون الناس عنده بمنزلة الأباعر).

ورابعها: وهو أدق وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيعجز الشيطان عن أن يقول له: (اخشع لأجلهم) فإنه قد عرف أنه لا يصلي لذلك فيقول الشيطان: تفكر في عظمة الله وجلاله، ومن أنت واقف بين يدي واستحي أن ينظر الله إلى قلبك وأنت غافل عنه ، فيحضر بذلك قلبه ويجمع جوارحه ويظن إن ذلك عين الإخلاص وهو عين المكر والخداع فإن خشوعه لو كان لنظره إلى جلال الله وعظمته لكانت هذه الخطرة تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون هذا الخاطر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملاً ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الخاطر كما لا يكون حضور البهيمة سبباً.

فما دام تفرق في أحواله بين مشاهدة الإنسان ومشاهدة البهيمة فهو بعد خارج عن صفوة الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم(من ديبب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء) كما ورد في الخبر.

ولا يسلم من الشيطان إلا من دق نظره وسعد بتوفيق الله تعالى وهداياه وإلا فالشيطان ملازم للمتشمسين لعبادة الله تعالى، لا يغفل عنهم لحظة حتى يحملهم على المهالك في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين، وقص الشارب وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب الفاخرة فإن هذه سنن في أوقات مخصوصة لكن للنفس فيها حظاً خفياً لارتباط نظر الخلق بهما.

فيدخل الشيطان عليه من هذه المداخل إن لم يتيقظ. ولهذا قيل (ركعتان من عالم أفضل من عبادة سنة جاهل) وأريد به العالم البصير بدقائق آفات العبادة حتى يخلص عنها لا مطلق العالم. فإن مداخل الشيطان على كثير من العلماء أعظم من مداخله على الجهلاء.

وخامسها: أن يكمل العبادة على الإخلاص المحض والنية الصالحة لكن عرض له بعد الفراغ منها حب إظهارها ليحصل له بعض الأغراض المحققة للرياء خديعة من الشيطان له أنه قد كمل العبادة الخالصة وقد كتبها الله تعالى في ديوان المخلصين فلا يقدر فيها ما يتجدد وإنما ينضم إلى ما حصله بها من خير الآجل خير آخر عاجل. العجب المتأخر ويدخل في زمرة الذين قال الله تعالى

عنهم: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ .

وقد روي أن رجلاً قال للنبي (ص): (صمت الدهر يا رسول الله) فقال له: (ما صمت ولا أفطرت).

وروي عن ابن مسعود أنه يقول: (قرأت البارحة البقرة) قال: (ذلك حظي) بل لو كنت باقياً على إخلاصك فقد نقصت منه تسعة وستين جزءاً من سبعين جزءاً على ما روي عنهم (ع): (إن فضل عمل السر على عمل الجهر سبعون ضعفاً).

وعن الصادق (ع): (من عمل حسنة سراً كتبت له سراً فإذا قرأ بها محيت وكتبت جهراً فإذا أقر بها ثانية محيت وكتبت رياء).

فيا لها من كلمة ما أشأمها، ورزية ما أعظمها حيث نقص بها حظك وضاع كدحك وليتك سلمت من تبعثها فإن المراني لا يسلم ، كما قد عرفت من وعيده وهذا كله مع عدم تعلق غرض صحيح في الآخرة بإذاعته وأما حظه كما لو أراد بذلك تنشيط السامع مع وثوقه بنفسه فلا حرج فيه إذا لم يمكن تنشيطه بدونه، وإلا كان أولى.

وقد روى محمد بن مسلم عن الباقر (ع) قال: (لا بأس أن تحت أخاك إذا رجوت أن تنفعه وتحتته، وإذا سألك: (هل قمت الليلة أو صمت؟) فحدثه بذلك إن كنت فعلته، فقل قدر رزق الله ذلك ولا تقل لا فإن ذلك كذب).

ومن هنا جاء أفضلية الصدقة جهراً ليتأسى به، والإجهار بصلاة الليل زيادة على غيرها ليتنبه أهله وجيرانه فيتأسوا به ولكن ذلك كله موضع الخطر فيجب الاحتراز والتيقظ بمراعاة القلب وكما يكون الإظهار مظنة الرياء وخطرته، كذلك الإخفاء فإن فيه أيضاً للشيطان مداخل منها:

أن يأمره بترك العمل خوفاً من أن يكون مرانياً به وهذا من جملة خدائعه وفي ترك العمل زوال تحصيل لغرضه، لأن غرضه الأقصى ترك العمل.

وإنما يعدل بك إلى قصد الرياء وغيره عند معجزه عن تثبيطك عن العمل، وتزهيدك فيه فإذا تركته فقد حصلت غرضه ومثالك في ذلك مثال من سلم إليه مولاه حنطة فيها تراب فقال له خلصها من

التراب، ونقها منه تنقيه بالغة فيترك أصل العمل ويقول أخاف إن اشتغلت به لم يخلص خلاصاً صافياً فيترك العمل من أصله.

وهذا تمام الغرض لإبليس اللعين وغاية القصد فقد حصلت أمنيته وأرحته من التعب بك في إفساد العمل وإنما سبيلك أن تجتهد في تخلص عملك بالأدوية النافعة، وتحصيل أمر مولاك.

ومنها: أن يأمره بترك العمل أيضاً لا لذلك بل خوفاً على الناس أن يولوا أنه مرء فيعصون الله به وهذا أيضاً مع ما قبله رياء خفي من مكائد الشيطان لأن ترك العمل خوفاً من قولهم إنه مرء عين الرياء، ولولا حبه لمحمدتهم وخوفه من ذمهم فما له ولقولهم قالوا أنه مرء أو قالوا أنه مخلص؟

وأى فرق بين أن يترك العمل خوفاً من أن يقال أنه مرء وبين أن يحسن العمل خوفاً من أن يقال أنه غافل مقصر؟ بل ترك العمل أشد من ذلك وفيه من ذلك إساءة الظن بالمسلمين، وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك.

ثم كيف تطمع أن تتخلص من الشيطان بترك العمل وقد أطعته فيه؟ فإنه لا يخليك أيضاً بل يقول لك: (لأن تقول الناس أنك تركت العمل ليقال أنك مخلص لا تشتهي الشهرة) إلى غير ذلك من اللعب بك، وإنما خلاصك من ذلك كله أن تلزم معرفة آفات الرياء وضرره، لتلزم كراهته، وتشمر مع ذلك على العمل ولا تبالي وتلزم قلبك الحياء من الله تعالى أيضاً إذ دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمد الله تعالى حمد المخلوقين وهو مطلع على قلبك ولو أطلع الخلق على قلبك وأنت تريد حمدهم لمقتوك بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل.

وتشهر به أحب العباد إلى الله تعالى الأتقياء الأخفياء الذين إذا شهدوا لم يعرفوا فإذا عرفا بين الناس بالعبادة لم يكن لك حظ من هذا الوصف.

وهذه أيضاً من مكائد وما عليك إذا أخلصت العمل لله أن تعرف به أو تجهل، وإنما عليك مراعاة قلبك وإصلاح سررك وكيف تخفى على الناس إذا كنت صالحاً وهو تعالى يقول: (عليك إخفاؤه وعلى إظهاره) ويقول: (من أصلح سريرته أصلح الله علاقته).

وإياك أن يغرك اللعين عند ذلك، ويقول إذا كنت لا تترك العمل لذلك فإخف العمل فإن الله تعالى سيظهره عليك وأما إذا أظهرته فيمكن أن تقع في الرياء.

وهذا التلبس عين الرياء لأن إخفاءك له كي يظهر عليك بين الناس هو بعينه العمل لأجل الناس وما عليك إذا كان مرضياً لله تعالى أن يظهر أو يخفى لولا نظرك إلى رضاء الناس إذا تقرر ذلك فإياك أن تحملك دقائق الإخلاص وصعوبة الخلاص على الكسل والقعود عن الطاعات نظراً إلى ما يحدث في نفسك من السرور بالطاعة وزيادة الابتهاج باطلاع الناس عليك بفعل العبادة بل اجتهد في قلع مادة الفساد ومجاري الشيطان عنك، وأعمل.

وأما سرورك بالطاعة فإن منه محموداً ومنه مذموماً فالمحمود أن يكون من قصدك وداعيتك إخفاء الطاعة والإخلاص لله سبحانه ولست مستكثراً لعملك وأما سرورك في أن وفقك الله للعمل وأخرجك من ربة البطالين والغافلين ولم تبلغ بالسرور حد العجب الآتي ذكره وإذا حصل اطلاع الناس عليه فلم يحصل من قبلك وإنما سررت باطلاعهم نظراً إلى أن الله هو الذي أطلعهم عليه، وأظهر له الجميل تكرماً عليك وتفضلاً ونحو ذلك.

والمذموم أن تفرح به استكثراً وركوناً إليه وبظهور الناس عليه، لقيام منزلتك عندهم ليمدحوك ويقوموا بقضاء حوائجك ويقابلوك بالإكرام ونحو ذلك فإنه رياء محض ومحبط للعمل وأصله حب الدنيا ونسيان الآخرة وقلة التفكير في ما عند الله.

نسأل الله من فضله أن لا يعاملنا بل يسامحنا بعفوه ويستتر زلاتنا بصفحه أنه جواد كريم

في العجب وأقسامه:

وأما العجب فهو استعظام العمل والابتهاج به والإدلال به وأن يرى العامل نفسه خارجة بسببه عن حد التقصير وهذا من أعظم المهلكات بل الناقل للعمل من كفة الحسنات إلى كفة السيئات ومن رفيع الدرجات إلى أسفل الدرجات، كما تقدم في الأخبار ولذلك قال عيسى (ع): (يا معشر الحواريين كم من سراج قد أطفأه الريح وكم من عابد أفسده العجب).

وروى سعد بن أبي خلف عن الصادق (ع) قال: (عليك بالجد ولا تخرجن نفسك عن حد التقصير في عبادة الله وطاعته فإن الله لا يعبد حق عبادته).

ومنشأ العجب الغفلة عن عيوب الأعمال وآفات العبادات وعن نعم الله على العاملين من الخلق والأقدار والأطاف والتسخير وغير ذلك.

أنظر إلى الأقرب إليك في هذا المقام وهو الصلاة التي هي عمود الدين، وأول ما ينظر فيه من أعمال ابن آدم فإن ردت رد ساير عمله وتأمل حدودها التي قد حكيناها مستندة إلى النصوص الصحيحة فلا يكاد يسلم لك صلاة واحدة كاملة تثق من نفسك بقبول الله إياها وهلم جراً إلى غيرها من العبادات فلكل واحد وظائف وحدود لا تبلغها أعمالنا ولا نقوم بها لغفلتنا وقد قال علي (ع):
اعملوا عباد الله، إن المؤمن لا يصبح ولا يمسي إلا ونفسه ظنون عنده فلا يزال زارياً عليها
ومستزيداً لها فكونوا كالسابقين قبلكم والماضين أمامكم ففوضوا من الدنيا تفويض الراحل
واطووها طي المنازل).

فكيف يعجب الإنسان بعمله ويعده قائماً بحقوق العبودية ووظائف الخدمة لولا استيلاء الغفلة؟ نعم
لا يقدح نظر المؤمن إلى نفسه وسروره بما يفعله من العبادة مع حمد الله تعالى على توفيقه لها
وطلب الاستزادة من فضله فقد قال أمير المؤمنين (ع): (من سرته حسنته وساعته سيئته فهو
مؤمن).

وقال (ع): (ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم فإن عمل خيراً حمد الله واستزاده، وإن
عمل شراً استغفر الله تعالى).

فهذا ما اقتضى الحال ذكره من المنافيات ملخصاً ليوافق الغرض فإن ذكره هنا بالعرض والله
الموفق.

الخاتمة

وأما الخاتمة: ففيها بحثان:

البحث الأول: في جبر الخلل الواقع في الصلاة، بمعنى بيان الدواء الدافع لهذه المنافيات.

أعلم أن الخلل إن كان من قبيل منافي الإقبال بالقلب على الصلاة بسبب الأفكار الخارجة عنها فدواؤه تذكر ما هو فيه، ومن ينجيه، واستشعار الأخطار اللازمة من الغفلة وعدم قبول العمل مع شدة الحاجة إليه من يومه هذا إلى الأبد. فإن التوفيق الواقع من الجنب الإلهي للمطيع فائض في الدارين والحاجة إليه حاصلة في الحالين سيما يوم الجزاء الذي يضيق عن وصفه الحال، ولا يحيط بتقريره العقل ولا الخيال ولا يطيق حمل أهواله الجبال، وليس فيه المقبولة الرابعة فإنها وسيلة الأنوار في تلك الظلمة والنجاة من تلك الشدة والجواز على عقبة الساهرة.

ولا تكتسب الأعمال الصالحة والطاعات المقبولة إلا في هذه الدار الزائلة وفي هذه المدة القصيرة التي أكثرها قد مضى على الغفلة ويكاد يلحق باقيها بماضيها وإن لم يستيقظ الغافل ويستدرك ما فرط وليس في تلك الدار إلا الجنة والنار، والجنة أعدت للمتقين كما أن النار أعدت للفاستقين.

وبالجملة فالخطر عظيم، والأمر جسيم والغفلة شاملة ونحن مع ذلك لا نشعر وقد قال النبي (ص):
(تمضي على الرجل ستون سنة أو سبعون سنة ما قبل الله منه صلاة واحدة).

وقال الصادق (ع) لحامد بن عيسى - الذي كان يحفظ في فقه الصلاة كتاب حريز ودعا له الصادق (ع) بأن يحج خمسين حجة وأن يكثر الله تعالى ماله وولده فأجيب له في جميع ذلك - حين صلى عنده ركعتين: (ما أقبح الرجل منكم تمضي عليه ستون سنة أو سبعون سنة لا يحس أن يتم صلاة واحدة بحدودها).

وقال (ص): (كم من قارئ للقرآن والقرآن يلغنه؟ وكم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والعطش).

إلى غير ذلك من الآثار الدالة على صعوبة الأمر ودقة الخطر.

فإحضار هذا وشبهه وما تقدر في المقدمة من الأثر مما يعين على حضور القلب مضافاً إلى ما سلف من الدواء المعين على ذلك في المطلب الثالث.

وإن كان المنافي من قبيل المفسدات فالعلاج النافع في ما ينافي الإخلاص هو التفكير في مضرة الرياء وما يفوت بسببه من صلاح القلب وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله تعالى وما يعرض له من العقاب العظيم والمقت الشديد والخزي الظاهر حيث ينادي على رؤوس الأشهاد والعباد: يا فاجر يا غادري يا مرء أما استحييت إذا اشتريت بطاعة الله تعالى عرض الدنيا؟ راقبت قلوب العباد واستهزأت بطاعة الله تعالى، وتحببت إلى العباد بالتبغض إلى الله تعالى وتزينت لهم بالشين عند الله تعالى، وتربت إليهم بالبعد من الله وتحمدت إليهم بالتدّم عند الله وطلبت رضاهم بالتعرض لسخط الله ، أما كان احد أهون عليك من الله تعالى؟

فمهما تفكر العبد في هذا الخزي وقابل ما يحصل له من العباد بالتزين لهم في الدنيا بما يفوته من الآخرة وبما يحيط عليه من ثواب الأعمال مع أن العمل الواحد ربما كان يترجح به ميزان حسناته لو خلص، فإذا فسد بالرياء حول إلى كفة السيئات فتنرجح به بعد أن كان مرجوحاً ويهوي العبد إلى النار.

فلو لم يكن في الرياء إلا إبطاء عبادة واحدة لكان ذلك كافياً في معرفة ضرورة، وإن كان مع ذلك ساير حسناته راجحة فقد كان ينال بهذه الحسنات علو الرتبة عند الله تعالى في زمرة النبيين والصدّيقين وقد حظ عنهم بسبب الرياء ورد إلى صف النعال من مراتب الأولياء، إن لم يستوجب النار والخزي والطرّد من الملك الجبار هذا مع ما يعرض له في الدنيا مع تشتت الهم بسبب ملاحظة قلوب الخلق فإن رضاء الناس غاية لا تدرك فكل ما يرضى به فريق يسخط به فريق ورضاء بعضهم في سخط بعض ومن طلب رضاهم في سخط الله سخط الله عليه، وأسخطهم أيضاً عليه، كما ورد في الأخبار ولدت عليه التجربة.

ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله تعالى لأجل حمدهم ولا يزيد مدحهم رزقاً ولا أجلاً ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة.

وأما الطمع لما في أيديهم فأن يعلم أن الله تعالى هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء وأن الخلق مضطرون فيه ولا رازق إلا الله تعالى ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة والمقت والإهانة وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة ومن اعتمد على الله تعالى وجعل همه معه كفاه الله تعالى همه في الدنيا والآخرة.

فكيف يترك ما عند الله لرجاء كاذب وهم فاسدون؟ وقد يصيب وقد يخطى وإذا أصاب فلا تقي لذته بألم منته ومذلتته.

وأما ذمهم فلم يحذر منه ولا يزيد ذمهم شيئاً ما لم يوافقهم الله تعالى عليه، ولا يعجل أجله ولا يؤخر رزقه ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة ولا يبغضه إلى الله تعالى إن كان محموداً عند الله تعالى، ولا يزيده مقتاً إن كان ممقوتاً عند الله، فالعباد كلهم عجرة ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِنَفْسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ بل العقل والنقل التجربة قد أدنت بخلاف ذلك كله وأن المخلص أعماله لله يحببه الله إلى المخلوقين الصالحين والفاستقين بل إلى كثير من الكافرين فتراهم يعظمونه ويوقرونه، ويلتمسون بركته مع ضعفه وفقره، وقلة ذات يده، وقلة عمله.

والمرائي يظهر الله تعالى الخلق على باطنه وخبث نفسه وفساد نيته فيمقتونه ولا يفوز بمطلبه ويضيع تعبته ويبطل سعيه.

كما روي أن رجلاً من بني إسرائيل قال: (والله لأعبدن الله عبادة أذكر بها) أول داخل للمسجد وآخر خارج منه لا يراه أحد حين الصلاة إلا قائماً يصلي، وصائماً لا يفطر ويجلس إلى حلق الذكر فمكث بذلك مدة طويلة.

وكان لا يمر بقوم إلا قالوا فعل الله بهذا المرائي وصنع.

فأقبل على نفسه وقال: (أراني في غير شيء لأجعلن عملي كله لله) فلم يزد على عمله الذي كان يعمل قبل ذلك، إلا أنه تغيرت نيته إلى الخير.

فكان ذلك الرجل يمر بعد ذلك بالناس فيقولون رحم الله فلاناً، الآن أقبل على الخير.

وقد نبه الله تعالى على ذلك في كتابه فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا﴾ ثم هب أنهم أحبوك وأكرموك وخفي خبتك عليهم مع أن الله تعالى مطلع على فساد نيتك وخبث سريرتك فأبي خير لك في مدح الناس وأنت عند الله مذموم ومن أهل النار؟.

وأي شر لك في ذم الناس وأنت عند الله ممدوح ومن أهل الجنة وفي زمرة المقربين؟.

ومن أحضر في قلبه الآخرة ونعيمها المؤبد والمنازل الرفيعة عند الله تعالى، استحق ما يتعلق بالخلق أيام الحياة مع ما فيه من الكدورات والمنغصات واجتمع همه وانصرف إلى الله تعالى قلبه، وتخلص من مذمة الرياء ومقاساة قلوب الخلق وانعطف من إخلاصه أنوار على قلبه ينشرح بها صدره ويستأنس بها من وحشته.

وإن لم يكتف بذلك كله فليتأمل ثلاثة أشياء:

أحدها: أنه لو قيل لك أن هنا رجلاً معه جوهر نفيس يساوي مائة ألف دينار وهو محتاج إلى ثمنه بل إلى بيعه عاجلاً وإلى أضعاف ثمنه، فحضر من يشتري منه متاعه بأضعاف ثمنه - مع حاجته إلى الأضعاف أيضاً - فأبى أن يبيعه بذلك وباعه بفلس واحد، أليس ذلك يكون خسراناً عظيماً وغبناً فظيماً ودليلاً بيناً على خسة الهمة وقصور الفهم والعلم وضعف الرأي ورقة العقل بل السفة المحض؟

وهذا بعينه أبلغ من حال المراني في عمله، بل في عبادة واحدة فإن ما يناله العبد بعمله من الخلق من مدحه وحطام الدنيا بالإضافة إلى رضا رب العالمين وشكره، وثواب الآخرة ونعيم الجنة الدائم المخلص من شوب الكدورات أقل من فلس في جنب ألف دينار بل في جنب الدنيا وما فيها وأكثر.

وهذا هو الخسران المبين أن تفوت على نفسك تلك الكرامات العزيزة الشريفة، بهذه الأمور الدنية الحقيمة.

ثم إن كان لابد من هذه الهمة الخسيصة فاقصد أمنت الآخرة يتبعك الدنيا، بل أطلب الرب وحده يعطك الدارين إذ هو مالكهما جمعياً وذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾.

وقال النبي (ص): (إن الله يعطي الدنيا بعمل الآخرة ولا يعطي الآخرة بعمل الدنيا).

فإذا أنت أخلصت النية وجدت الهمة للآخرة حصلت لك الدنيا والآخرة جمعياً وإن أردت الدنيا ذهب عنك الآخرة في الوقت وربما لا تنال كما تريد وإن نلتها فلا تبقى لك بل تزول عنك قريباً فقد خسرت الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين.

وينظر هذا الشخص بالنسبة إلى مثل هذا المثل من يصرف جزءاً من عمره ونفساً من أنفاسه الذي يمكنه به تحصيل كنت من كنوز الجنان في ما يحصل به دائق أو حبة أو درهم أو دينار من متاع الدنيا، وترك ذلك الكنز الدائم لغير ضرورة ما هذا إلا عين الغفلة والخسران وخسة الهمة والخذلان.

وثانيها: أن المخلوق الذي تعمل لأجله وتطلب رضاه لو علم أنك تعمل لأجله لأبغضك وسخط عليم واستهان بك واستخف بك مضافاً إلى مقت الله تعالى، وإهاناته وخذلاته وما تعمله الله تعالى وما تعمله الله تعالى خالصاً يوجب رضا الفريقين فيكيف يعمل العاقل لأجل من لو علم بأنه يطلب رضاه سخط عليه، وأهاته؟

وثالثها: إن من حصل له سعي يكتسب به رضا أعظم ملك في الدنيا فطلب به رضا كناس خسيس بين الناس وسخط لذلك الملك، بل مع عدم سخطه أليس ذلك دليلاً على السفه ورداءة الرأي وسوء النظر ويقال له: ما حاجتك إلى رضا هذا الكناس مع تمكنك من رضا هذا الملك؟

كذلك أي حاجة إلى رضا عبد مخلوق ضعيف حقير مهين مع التمكن من تحصيل رضا رب العالمين الكافي عن الكل؟

نسأل الله حسن التوفيق وهذا هو الدواء العملي.

في الدواء العملي للخلل:

وأما الدواء العملي فهو أن يعود نفسه على إخفاء العبادات وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواش حتى يقتنع قلبه بعلم الله تعالى وإطلاعه على عبادته ولا تنازعه نفسه إلى طلب علم غير الله وهو أمر يشق في ابتداء المجاهدة لكن إذا صبر عليه مدة بالتكليف سقط عنه ثقله وهان عليه ذلك بتواصل أطاف الله تعالى وما يمد به عبادة من حسن التوفيق ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فمن العبد المجاهدة ومن الله تعالى الهداية.

قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ وإن كان المنافي من قبيل المتأخر عن العبادة وهو الرياء المتأخر والعجب فقد عرفت دواء الأول.

في دواء العجب

أما العجب فلينظر في الأسباب والآلات التي قوي بها على العبادة التي أورثته العجب من القدرة والعلم والأعضاء والرزق الذي أكله حتى قوي به فإنه يجده كله من الله تعالى ولولاه لم يقدر على شيء منها.

ثم ينظر إلى نعمته عليه في إرسال الرسل إليه وخلق العقل حتى اهتدى به إلى طريق الحق.

ثم ينظر في قيمة العمل الذي عمله فلا يجده مقابلًا لنعمة من هذه النعم وإنما صار لعمله قيمة لما وقع من الله تعالى موقع الرضاء والقبول أفلا ترى الأجير يعمل طول النهار بدرهمين والحارس يسهر طول الليل بدانقين وكذلك أصحاب الصناعات والحرف كل واحد منهم يعمل في الليل والنهار فيكون قيمة كل ذلك دراهم معدودة، فإن صرف الفعل إلى الله تعالى، فصمت لله تعالى، قال: ﴿ إِنَّمَا يُؤَفِّقِي الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ وفي الخبر: (أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر).

فهذا يومك الذي قيمته درهمان مع احتمال التعب العظيم صارت له هذه القيمة بتأخير غداء إلى عشاء ولو قمت ليلة لله تعالى فقد قال تعالى: ﴿ لَّا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

فهذا الذي قيمته درهم صارت له كل هذه القيمة والقدر، بل لو جعلت لله ساعة تصلي فيها ركعتين خفيفتين بل نفساً فقلت فيه: (لا إله إلا الله) قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

فحق إذن للعاقل أن يرى حقارة عمله وقلة مقداره من حيث هو وأن لا يرى إلا منة الله تعالى عليه في ما شرف به من قدر عمله وأعظم من جزائه وأن يحوز في فعله أن يقع على وجه لا يصلح لله تعالى ولا يقع منه موقع الرضاء فيذهب عنه موقع القيمة التي حصلت له، ويعود إلى ما كان في الأصل من الثمن الحقيق.

فقس قدر عملك في نفسه إلى ما عليك من نعمه فهل تجده وافيًا بعشر عشرة؟ وهل توفيقك للقيام بوظائف العبودية وتأهيلك للخدمة الإلهية إلا نعمة بل أعظم نعمة يلزمك شكرها، كما أشير إليه في خبر داوود (ع) حين أوحى الله إليه: (أن أشكرني حق شكرني) فقال: (يا رب كيف أشكر حق شكرك والشكر من نعمتك تستحق عليه شكرًا؟).

فقال: (يا داوود إذا عرفت أن ذلك مني فقد شكرتني).

وروي أن بعض الوعاظ قال لبعض الخلفاء أتراك لو منعت شربة من الماء عند عطشك بم كنت تشتريها؟

قال : بنصف ملكي.

قال: أتراها لو حسبت عنك عند خروجها بم كنت تشتريها؟

قال: بالنصف الآخر.

قال: فلا يغررك ملك قيمته شربة ماء.

ففكر أنت كم تناول في كل يوم شربة ماء هنيئة وأكلة هنيئة تسيغها هنيئاً في عافية وكم تنظر بعينك هنيئاً وتسمع طيباً وتشم زكياً وتمشي إلى ما تحب وتبطن بيدك فيما تحب... إلى غير ذلك من حواسك وأعضائك وقواك الباطنة التي لا يطلع على دقائقها وتصريفها إلا الله تعالى من مجاري طعامك وتصاريف هضمك وتفريق فضلاتك وتغذيته مما لو صرفت زمانك في الفكر فيه خاصة لقضيت منه العجب ولو فقدت شيئاً يسيراً منه وطلب منك طبيب على أن يرده إليك ويصلحه لك مقابل خدمتك له سنة أو أكثر لسررت بذلك وعددته منعماً عليك وكم تقابل هذه النعم المتعددة بسنين من الخدمة.

والحال إنك لا تخدم مولاك المنعم إلا أوقاتاً قليلة، ولو تأملت ما عرفت عيوبها وآفات ما لم تثق بشيء منها، ولاستحييت من فعلها وقد قال الله تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿وَإِنْ تَعَدَّوْا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾

فالنعم عليك لا تحصى وعملك - على تقدير سلامته وقوله - قليل يحصى.

ثم إذا قابلته بقيت خالياً من عمل يوجب لك المكافأة فقصاراك الاعتراف بالتقصير وترك المراقبة لله تعالى وتذكر المنة والاعتراف بالنعمة والإزراء بنفسك والمقت لها لعك تفوز برحمة الله تعالى. فقد قال رسول (ص): (من مقت نفسه دون مقت الناس أمنه الله من فزع يوم القيامة).

وروي أن عابداً عبد الله تعالى سبعين عاماً صائماً نهاره قائماً ليله فطلب إلى الله تعالى حاجة فلم تقض فأقبل على نفسه وقال (من قبلك أتيت لو كان عندك خير قضيت حاجتك) فانزل الله إليه ملكاً فقال : (يا ابن آدم ساعتك التي أزريت فيها على نفسك خير من عبادتك التي مضت).

ثم تأمل بع ذلك ثلاثة أمور:

أحدها: أن ملكاً من ملوك الدنيا إذا أجرى على أحد من أتباعه طعاماً وكسوة أو دراهم أو دناتير فإنه يستخدمه لأجلها بضروب الخدم آناء الليل والنهار مع ما في ذلك من الذل والصغار وبعضهم يقوم لذلك على رأسه ويسهر الليل بأجمعه لأجله وبعضهم يقف في خدمته يوماً بعد يوم حتى ينقضي عمره، وبعضهم يسعى في حوائجه ومهماتهم ويركب الأهوال ولجج البحار لأجله وربما يبدو له عدو فيبذل لأجله روحه التي لا خلف عنها ولا ينفعه في الآخرة بعد ذلك فتراهم يحتلمون كل هذه الخدمة لأجل تلك المنفعة الخسيسة الفانية ومع ذلك يعترفون للملك بالنعمة ويقرون له بالفضل عليهم والمنة، مع أن تلك المنفعة في الحقيقة من الله تعالى ولو أراد ملكهم على أن ينبت لهم حبة واحدة أو يخلق لهم خبثاً واحداً لم يقدر على ذلك وهم يعترفون بذلك كله.

فكيف تستكثر عملك الحقير المشوب بالآفات والنقائص لربك الذي خلقك ولم تك شيئاً مذكوراً ثم رباك واتعم عليك من النعم الظاهرة في نفسك ودينك وديارك ما لا يبلغ كنهه فهمك ولا وهمك كما قال الله تعالى: ﴿ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا ﴾ وقد وعدت على هذا العمل القليل مع ما فيه من المعيب والآفات بالثواب العظيم الدائم، وضروب الكرامات فما استعظم ذلك من شأن العقل.

وثانيها: أن تتفكر في أن الملك الذي من شأنه أن تخدمه الملوك والأمراء إذا أذن في إدخال الهدايا إليه، ووعد عليها بالعطاء العظيم، وأمر أن لا يستحي أحد بهديته ولو كان باقة بقل، فدخلت عليه الكبراء والأمراء والرؤساء والأغنياء بأنواع الهدايا من الجواهر الثمينة واللآلئ النفسية ثم جاء إليه بقال باقة بقل، وقروي بسلة عنب تساوي درهماً أو حبة فدخل بها إلى حضرته وزاحم أولئك الأكابر بهدياتهم الجليلة فقبل الملك من الوضيع هديته ونظر إليها نظر القبول، وأم له بأنفس خلعة وكرامة، تبلغ مائة ألف دينار ألا يكون ذلك منه في غاية الفضل والكرم؟

ثم لو فرض أن هذا الفقير نظر بخاطره إلى هديته واستعظم أمرها وتعجب بها ونسي ذكر منة الملك ألا يقال هذا مجنون مضطرب العقل أو سفيه سيئ الأدب عظيم الجهل؟.

وثالثها: أن الملك الذي من شأنه أن تخدمه الملوك والأمراء وتقوم على رأسه السادات والعظماء ويتولى خدمته الحكماء وتمشي بين يده الأكابر والرؤساء إذا أذن لسوقي أو قروي في الدخول عليه والقرب منه حتى زاحم أولئك السادات والأفاضل في خدمته وجعل له مقاماً في حضرته، أليس يقال لقد كثرت على هذا الحقير المنة من الملك وعظمت عليه النعمة؟

فإن أخذ هذا الحقير يمكن على الملك بتلك الخدمة الحقيرة ويستعظم ذلك مع هذه النعمة الواصلة إليه ويعجب بعمله، أليس ينسب إليه محض السفه والجنون؟.

فكيف، وإلهنا الذي له ملك السموات والأرض وقد دان له العالمون ووقف بخدمته الملائكة المقربون والأنبياء المرسلون الذين لا يحصي عددهم إلا رب العالمين ومنهم النافذة في تخوم الأرض أقدامهم الواصلة إلى العرش رؤوسهم وهم مع ذلك مطرقون لا يرفعون رؤوسهم تعظيماً لله تعالى، ولا يفترون عن ذكر الله تعالى أبداً إلى آخر مدتهم فإذا أراد الله أن يميتهم رفعوا رؤوسهم وقالوا: (سبحانك ما عبدناك حق عبادتك).

ولا يخفى حال نبينا (ص) في جده واجتهاده في عبادة ربه ومن بعده الأئمة عليهم السلام الذين يخرج ذكر يسير من عباداتهم عن حد الاختصار إلى نهاية الإكثار وهم مع ذلك معترفون بالتقصير باكون على أنفسهم مزرون عليها ثم أنك ترضى من نفسك بصلاة ركعتين محشوة من المعاييب وقد وعدت من الثواب عليها بما لا يخطر على قلب بشر وتعجب من ذلك وتستكثره ولا ترى منة الله عليك في ذلك؟

فما أجهدك من إنسان وما أسوأك من رجل وما أسفحك من بشر!.

وأما نحن فلو عقلنا وتفطنا لأعمالنا لوجدناها إلى كفة السيئات أميل منها إلى كفة الحسنات لشدة الغفلة وكثرة المعاييب وفساد القلوب، وتشويش المقاصد.

اللهم لا تكلنا إلى أعمالنا ولا تؤاخذنا بتفريطنا وإهمالنا واشمئنا بفضلك وأنسك وخذ بنواصي قلوبنا إلى جوار قدسك فقديماً سترت وعظيماً غفرت وجزيلاً أعطيت وجسيماً أبليت وأنت أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين فما قدمت علينا أيدينا إلا صفراً من الحسنات مملوءة بالمعاصي والسيئات وجودك أوسع وأكمل من أن يضيق عن التجأ إليك واعتمد بفضلك ورحمتك عليك وأنت داللتنا على جودك وهديتنا إلى فضلك وأمرتنا بالدعاء وضمنت الإجابة وأنت الجواد الكريم.

البحث الثاني

في خصوصيات باقي الصلوات

في أسرار صلاة الجمعة

بالنسبة إلى اليومية: تختص الجمعة باستحضار أن يومها يوم عظيم وعيد شريف خص الله به هذه الأمة وجعله وقتاً شريفاً لعبادته ليقربهم فيه من جوارهم ويبعدهم من طرده وناره وحثهم فيه على الإقبال وتلافي ما فرط في بقية الأسبوع من الإهمال وجعل أهم ما يقع فيه من طاعته وما يوجب الزلفى والقرب إلى شريف حضرته صلاة الجمعة وعبر عنها في محكم كتابه الكريم بذكر الله الجسيم وخصها من بين سائر الصلوات التي هي أفضل القربات بالذكر الخاص فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ﴾ وفي هذه الآية الشريفة من التنبيهات والتأكيدات ما ينتبه له من له حظ من المعاني لا يليق بسطه بهذه الرسالة.

ومن أهم رمزها هنا التعبير عن الصلاة بذكر الله ونبه بذلك على أن الغرض الأقصى من الأقصى من الصلاة ليس هو مجرد الحركات والسكنات والركوع والسجود، بل ذكر الله تعالى بالقلب وإحضار عظمته بالبال فإن هذا وأشباهه هو السر في كون الصلاة ناهية عن الفحشاء والمنكر كما أخبر تعالى عنه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ إذا كان سببهما القوة الشهوية إذا خرجت عن حكم العقل وهذا كله إنما يتم مع التوجه التام إلى الله تعالى وملاحظة جلاله الذي هو الذكر الأكبر والكثير على ما ورد في بعض تفسيراته فضلاً عن أن يكون ذكراً مطلقاً وإذا كان الاستعداد بهذه المثابة لا جرم وجب الاهتمام بها زيادة على غيرها من الصلوات والتهيؤ والاستعداد للقاء الله تعالى. والوقوف بين يديه في الوقت الشريف والنوع الشريف من العبادة.

وأحضر ببالك أن لو أمرك ملك عظيم من ملوك الدنيا بالمثل في حضرته والفوز بمخاطبته في وقت معين أما كنت تتأهب له بتمام الاستعداد والتهيئة والسكينة والوقار والتنظيف والتطيب وغير ذلك مما يليق بجلال الملك؟

ومن هنا جاء استحباب الغسل يوم الجمعة والتنظيف والتطيب والتعمم على الرأس وقص الشارب والأظفار وغير ذلك من السنن فبادر عند دخول يوم الجمعة إلى ذلك بقلب مقبل صاف وعمل مخلص وقصد متقرب ونية خالصة كما تعمل ذلك في لقاء ملك الدنيا إن لم تعظم همتك عن ذلك ولا

تقصد بهذه الوظائف حظك من الرفاهية وتطيب نفسك من الطيب والزينة فتخسر صفقتك وتظهر بعد ذلك حسرتك، وكلما أمكنك تكثير المطالب التي يترتب عليها الثواب فاقصدها يضاعف ثواب عملك بسبب قصدها فأنوا بالغسل يوم الجمعة سنة الجمعة والتوبة عند دخول المسجد وبالثياب الحسنة والطيب سنة رسول (ص) وتعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا تحب أن تدخله زائراً له إلا طيب الرائحة وأن يقصد به أيضاً ترويح جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته ويقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه حسماً لباب الغيبة عن المغتابين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيعصون الله تعالى بسببه، فقد قيل أن من تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية، كما أشار إليه تعالى بقوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾.

وإذا حضرت الصلاة فاحضر قلبك فهم مواقع الموعظة واستعد لتلقي الأوامر والنواهي على وجهها فإن ذلك هو الغرض الأقصى من الخطبة والخطيب والمنبر واستماع الناس وتحريم الكلام خلالها ووجوب الإصغاء إليها.

فاعط كل ذي حقه حقه عسى أن تكون من المكتوبين في ديوان الملائكة المقربين الذين يكتبون المصلين في ذلك اليوم الشريف، ويعرضونهم على الحضرة الإلهية ويخلعون عليهم خلع الأنوار القدسية.

فقد روي أن الملائكة المقربين تقف على أبواب المساجد وبأيديهم قراطيس الفضة وأقلام الذي يكتبون الأول فالأول وإن الجنان لتزخرف وتزين وإن الناس يتسابقون إليه على قدر سبقهم إلى الصلاة ولا تزال الملائكة يكتبون الداخل إلى أن يخرج الإمام فإذا خرج طويت الصحف ورفعت الأقلام واجتمعت الملائكة يستمعون الذكر وإن الناس في المنازل والحظوة على قدر بكورهم إلى الجمعة.

فإذا أحضر هذا ببالك وأن الملائكة يستمعون وهم حولك والله سبحانه وتعالى ناظر إليك لزمك ارتداء الهيبة وأدراع السكينة وتجلبب الخشية وعند ذلك تستحق أن تفاض عليك الرحمة وتحفك البركة وتصير صلاتك مقبولة ودعوتك مسموعة وأكثر في ذلك اليوم من الذكر والاستغفار والدعاء وتلاوة القرآن والصلاة على النبي (ص) والصدقة فإن اليوم شريف والفضل فائض والجود تام والرحمة واسعة فإذا كان المحل قابلاً تمت السعادة وحصلت الإرادة وزيادة.

وتذكر في يوم الجمعة ساعة لا يرد الله فيها دعوة مؤمن.

فاجتهد أن تصادفها داعياً ومستغفراً وذاكراً فإن الله معطي الذاكر فوق ما يعطي السائل.

وإن أمكنك الإقامة في المسجد مجموع ذلك اليوم فافعل فإن لم يمكن فإلى العصر.

وكن حسن المراقبة مجتمع الهمة عسى أن تظفر بتلك الساعة فقد قيل أنها مبهمة في جميع ذلك اليوم نظراً من الله تعالى لخلقه ليحافظوا عليها كما أخفى ليلة القدر في جميع السنة ليحافظوا عليها.

وروي أنها ما بين فراغ الإمام من الخطبة إلى أن يستوي الصفوف بالناس وساعة أخرى من آخر النهار إلى غروب الشمس.

واجعل هذا اليوم خاصة في الأسبوع لآخرتك فعسى أن يكون كفارة واستدراكاً لبقية الأسبوع.

ويكفيك في الاهتمام بالجمعة ووظائفها أن الله سبحانه جعلها أفضل أعمال بني آدم بعد الإيمان على ما نطقت به الأخبار وصرح به العلماء الأخيار حيث دلا على أن الواجب أفضل من الندب وإن الصلاة أفضل من غيرها من الواجبات وأن اليومية أفضل من غيرها من الصلوات وأن الصلاة الوسطى من بينها أفضل الخمس والمختار أنها الظهر والجمعة أولى من الظهر فتكون أفضل منها، لو أمكن تصور فضل لها وحينئذ فتكون أفضل الأعمال.

وهذا بيان واضح يوجب تمام الاهتمام بشأنها وأبلغ الخطر في التهاون بها لمن تدبر وقد نبه على جميع ذلك قوله تعالى بعد الأمر بها: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وقد وردت الأوامر بقراءة سورتها وسورة المنافقين فيها ليتكرر سماع الحث عليها فيهما وقد قال في سورة المنافقين بعد أن سماها في سورتها ذكراً: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ الخ.

فكر هذه الدقائق على فرك عسى أن تكون من المفلحين.

في أسرار صلاة العيد ووظائفها:

وأما صلاة العيد فاحضر في قلبك أنها في يوم قسمة الجوائز وتفرقة الرحمة وإفاضة المواهب على من قبل صومه وقام بوظائفه.

وأكثر من الخشوع في صلاتك والابتهاال إلى الله تعالى فيها وقبلها وبعدها في قبول أعمالك والعمو عن تقصيرك واستشعر الحياء والخوف والخجلة من حيرة الرد وخذلان الطرد ليس ذلك اليوم بعيد (من لبس الجديد وإنما هو عيد من أمن من الوعيد) وسلم من النقاش والتهديد واستحق بصالح أعماله المزيد واستقبله بما استقبلت به يوم الجمعة من الوظائف والتنظيف والتطيب وغيره من أسباب التهيؤ والإقبال بالقلب على ربك والوقوف بين يديه عسى أن تصلح للمناجاة والحضرة لديه فإنه مع ذلك يوم شريف وزمان منيف يقبل الله فيه الأعمال وتستجاب فيه الدعوات فلا تجعل فرحك فيه بما لم تخلق لأجله ولم يجعل عيداً بسببه من المأكل والمشرب واللباس وغير ذلك من متاع الدنيا البائرة فإنما هو عيد لكثرة عوائد الله تعالى فيه على من عامله بمتاجر الآخرة.

في أسرار صلاة الآيات

وأما صلاة الآيات فاستحضر عندها أحوال الآخرة وزلازلها وتكوير الشمس والقمر وظلمة القيامة ووجل الخلائق والتجاءهم واجتماعهم في تلك العرصة وخوفهم من الأخذ والنكال والعقوبة والاستيصال وأكثر من الدعاء والابتهاال بمزيد من الخشوع والخضوع والخوف والوجل في النجاة من تلك الشدائد ورد النور بعد الظلمة والمسامحة على الهفوة والزلة وتب إلى الله تعالى من جميع ذنوبك وأحسن التوبة عسى أن ينظر إليك وأنت منكسر النفس مطرق الرأس مستحي من التقصير فيقبل توبتك ويسامح هفوتك فإنه يقبل القلوب المنكسرة ويحب النفوس الخاشعة والأعناق الخاضعة والتملل من ثقل الأوزار والحذر من منقلب الأضرار.

في أسرار صلاة الطواف:

وأما صلاة الطواف فاستحضر عندها جلالة البيت لجلالة رب البيت واعلم أنك بمنزلة الواقف في حضرة الملك المطلق والحكم بالحق فإنه وإن كان في جميع أحوالك مطلعاً على سريرتك محيطاً بباطنك وظاهره لكن الحال في ذلك الموضع أقوى والمراقبة فيه أتم وأولى والغفلة ثم أصعب وأدهى وأين المقصر في تعظيم الملك بين يديه ولدى كرسيه وبين النائي عنه، والبعيد منه؟

وإن كان عمله شاملاً للجميع ومحيطاً بالكل فليزد ذلك في خشوعك وإقبالك ولتحذر بسبب ذلك من إعراضك وإهمالك ومن ثم كان الذنب في تلك البقاع الشريفة مضاعفاً والحسنة أيضاً فيها مضاعفة.

وتفكر في من سبق من الأنبياء المقربين والأولياء الصالحين فترى آثارهم وقربهم وما أورثهم علمهم وحبهم من السعادة المخلاة والنعمة المؤبدة المجددة على مر الزهور والمطرودة على كر العصور وتأس بهم في العمال وكمال الإقبال وليكن ذلك نظائره مقدمة للصلاة لا مقارناً فإن وظيفة الصلاة الإقبال بها خاصة وترق من هذه المدارج إلى غيرها من شريف المعارج.

في أسرار صلاة الجنائز:

وأما الجنائز فاحضر عند مشاهدتها ووضعها بين يديك ما قد خلقتة من الأهل والأولاد وتركتة من الأموال وقدمت على الله تعالى صفر اليد من الجميع لم يصحبها إلا الأعمال وما تاجرتة من أعمال الآخرة الرابحة وتأمل بهجته كيف ذهبت وجلدته كيف تحولت وعن قريب يحو التراب صورته وتآكل الأرض هيأته وما قد حصل له من يتم أولاده وترمل نسائه وتضيع أمواله وخلو مسجده ومجلسه وانقطاع آثاره بعد طول أمله، وكثرة حيلة وانخداعه بمواطاة الأسباب وغفلته عن الدخول في هذا التراب والقدم على ما سطر عليه في الكتاب وركونه إلى القوة والشباب وانشغاله عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وكيف كان يتردد ويشيع غيره من الأموات والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وكيف كان ينطق وقد فسد لسانه وكيف كان يضحك وقد تغيرت أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشرين سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر أو أقل وهو غافل عما يراد به حتى جاءه الموت فجأة في وقت لم يحتسبه فيه ففرع سمعه نداء الجبار إما بالجنة أو النار.

ولينظر في نفسه أنه الآن مثله في غفلته وستكون عاقبته كعاقبته فلينهض حينئذ إلى الاستعداد بإكثار الزاد فإن المسافة بعيدة والعقبة كؤود والخطر شديد والندامة بعد الموت غير نافعة.

فهذا الفكر وأمثاله يحصل قصر الأمل والاستعداد بصالح العمل ومحله خارج عن الصلاة كما ترى.

في أسرار صلاة النذر:

وأما صلاة النذر والعهد ونحوهما فليستشعر قلوبها والرغبة في القيام بها والاهتمام بشأنها وفاء لعهد الله تعالى، وامتثالاً لأمره ولا يتبرم بها توها أنها ليست واجبة بالأصالة فقد لحقت بمثلها في العظمة والجلالة وليمثل في نفسه أنه لو عاهد ملكاً من ملوك الدنيا على عمل من الأعمال بحيث يكون فعله له بمرأى منه ومسمع كيف يكون إقباله على عمله واجتهاده في إصلاحه وإتقانه وامتلاء قلبه منه، ومراقبته لنظر الملك بمجرد الوعيد فضلاً عن توكيد بالعهد فلا تعجل نظر الله تعالى دون نظر عبده فإن ذلك عنوان النفاق وأنموذج الشرك .

وهكذا يلاحظ وظيفة كل صلاة بحسبها ويقوم بمزيتها وآدابها ولا يقتصر على ما بيناه من الوظائف بل يترقى نظره إلى ما يفتح الله تعالى من المعارف فإن أبواب الفيض مفتوحة وأنوار الجود هابطة ومبذولة واصلة إلى النفوس الإنسانية على قدر استعدادها.

وفقتنا الله وإياكم لتلقى الأسرار وأدرجنا في عداد عباده الأبرار وأخذ بنواصينا إلى رضاه ورحمته وعاملنا بعفوه وكرمه ومغفرته واستعملنا بما علنا وأشركنا في ثواب من أفدناه فإن ذلك منه وبه وله وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وها هنا قطع الكلام في هذه الرسالة حامدين الله تعالى على كل حالة، وفرغ منها مؤلفها شيخ الإسلام والمسلمين وقبلة المتعبدين أعلم العلماء العاملين وأكمل الفضلاء الكاملين رئيس الفقهاء والمتكلمين زين الملة والحق والدين، الزاهد، العابد، الورع، الناطق بالحق والصواب، المؤيد من عند رب الأرباب الشيخ زين الدين بن علي بن أحمد الشامي العاملي تغمده الله بغفرانه وأسكنه بحبوبة جناته يوم السبت تاسع شهر ذي الحجة الحرام سنة إحدى وخمسين وتسع مئة.

والحمد لله أولاً وآخراً وظاهراً وباطناً وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.